اللطائف الربانية
في المعاتبات النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللطائف الربانية
في المعاتبات النبوية

(بيان تفسير الآيات التي فيها عتاب من الله
لأشرف خلقه محمد بن عبدالله ﷺ)

بقلم
د. أمير علي الحداد

الكويت
شعبان ١٤٤١هـ - أبريل ٢٠٢٠م

المقدمة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ (الكهف).

أحمده سبحانه حمداً كثيراً طيباً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الحمد في الأولى والآخرة.. جَعَلنا في أمة هي خير أمة أخرجت للناس.. وبعث لنا نبياً هو خير الأنبياء والرسل وخاتمهم، وأنزل إلينا كتاباً تضمن كلامه عز وجل.. فهو الحق الذي لا ريب فيه.. وهو الكمال الذي لا نقص فيه.. وتكفل سبحانه بحفظه كاملاً.. فأي نعمة أعظم من هذه النعم...

أكملُ كتاب لأشرفِ رسولٍ لخير الأمم.. اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضا... والصلاة والسلام على (محمد بن عبدالله) عبدالله ورسوله، اصطفاه.. ورباه.. وعصمه وهداه.. ونصره واجتباه.. وأيّده بأعظم المعجزات وأظهر على يديه الكرامات..

أصلّي وأسلّم عليه صلاة دائمة.. تزيل الهموم وتغفر الذنوب، وتنفع عند لقاء علام الغيوب...

وبعد:

فإن الله أمرنا أن نتدبر كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ (ص).

فلا ينبغي لمسلم أن تمر عليه آية.. دون أن يفهم مراد الله منها ويعرف معاني الكلمات فيها... وخاصة إذا تبادر إلى ذهنه معنى يخالف القواعد العامة للعقيدة الصحيحة!!

ومن ثوابت العقيدة، أن الله اختار خير البشر ليحملوا أعباء التعاليم الربانية وتبليغها للناس ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (آل عمران)، وتولى سبحانه تربية رسله وإرشادهم وتقويمهم لما فيه الخير... وأيدهم جميعاً، وأقام بهم الحجة على أقوامهم.. فهي سنة الله التي لا تتبدل.... أن يوجه رسله ويرشدهم إلى الأفضل في كل شأن ليكونوا قدوة للناس وأهلاً لتبليغ رسالاته..

في هذه الورقات التي بين يديك عزيزي القارئ... اجتهد جامعها في بيان الآيات التي يخاطب بها الله عز وجل... أحب الخلق إليه.. وأعلم الخلق به.. وأتقى الخلق له... رسول الله ﷺ بأساليب متنوعة.. قد يبدو بعضها «خطاباً شديداً».. أو «عتاباً قاسياً».. من الله لرسوله ﷺ، ولكن لو تتبع المسلم كتب التفسير وأجهد نفسه قليلاً في الاطلاع على أقوال المتخصصين لَعَلِم أن هذه الآيات لا تُنقِص من قدر النبي ﷺ .. ولا تقدح في علوّ مكانته... ولا تمسّ عصمته... بل ترفع درجته وتعلي قدره... وتثبت مكانته العليا عند الله عز وجل... وقبل بيان هذه الآيات ينبغي على كل مسلم أن يعلم يقيناً أن الله ميّز محمد بن عبدالله ﷺ بأمور:

منها أنه خير الرسل جميعاً وسيد البشر كلهم كما أوحى إليه ربه فقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، ويتجلى الأمر يوم القيامة كما قال ﷺ: «**وما من نبي يومئذ: آدم فمن دونه إلا تحت لوائي يوم القيامة... ولا فخر**» (صححه الألباني).

ومنها أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بذلك ويظهر ذلك جلياً من حديث الشفاعة.

ومنها أن الله سبحانه لم يخاطبه في كتابه قط باسمه المجرد (محمد).. بل يقول: ﴿**يا أيها النبي**﴾ ثلاث عشرة مرة، و ﴿**يا أيها الرسول**﴾ مرتين... أما باقي الأنبياء فناداهم جميعاً بأسمائهم.

ومنها أنه سبحانه ختم به جميع الأنبياء والرسل، ونسخ بشريعته كل ما سبقه، وجعل معجزته باقية إلى يوم القيامة.

ومنها... أنه سبحانه بعثه للناس كافة.. وما أرسله إلا رحمة للعالمين.

ومنها... أن الله خصه بـ(الوسيلة)، وهي مكانة لا ينبغي أن تكون إلا لواحد من خلق الله جميعاً هو (محمد بن عبدالله) ﷺ.

بهذه الأمور التي يجب أن تكون عقيدة كل مسلم يمكن لقارئ القرآن أن يفهم الأساليب التي خاطب الله بها رسوله ﷺ... وآيات المعاتبة يمكن جمعها تحت العناوين التالية:

- خطابٌ بصيغة الغائب وعتاب ليّن ووعد بالمغفرة لاجتهاده ﷺ في قضية لم يُوحَ إليه شيء عنها مثل.. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ (التوبة: ٤٣)، و﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (الأنفال: ٦٧)، و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾ (عبس)، و﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ (الأنعام: ٥٢).

- تشريعٌ للأمة في شخص نبيِّها وبيانٌ لخطورة بعض القضايا أو اختصاص الله بها... مثل: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ (الزمر)، و﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، و﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ

﴿٢١٣﴾﴾ (الشعراء)، و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨)، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص)، و﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (الكهف).

- إقامة الحجة على الكافرين والمعاندين مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف).. ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ (يونس: ٩٤).

- إرشاد النبي ﷺ وأمته من بعده بعدم مهادنة أهل الكفر والنفاق، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾ (الأحزاب: ١)، وقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ (الزمر).. وقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء).

- بيان إتمام النبي ﷺ لمهمته وتمام رسالته وشموليتها.. مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ (المائدة: ٦٧)، و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء).

- بيان فضل الله على نبيه ﷺ ومكانته عند الله عز وجل.. مثل قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ (الإسراء).. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء).. ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ (الإسراء: ٨٦).. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢).

هذه الغايات وغيرها... أتت من الحكيم العليم سبحانه وتعالى.. أنزلها في كتاب تكفل بحفظه إلى يوم القيامة.. فهي آيات تتلى وقرآن يُتعبد به..

فينبغي على كل مسلم أن يعرف معانيها ويتدبرها ويؤمن بها.. ويؤمن يقيناً أنها لا تنقص من مكانة النبي ﷺ ولا تقلل من علو قدره عند الله عز وجل..

وبعد بيان هذه الآيات التي خاطب بها الله عز وجل نبيه ﷺ أورد جامع هذه الكلمات الآية التي خاطب بها الله عز وجل أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ رضي الله عنهن جميعاً ليقطع السبيل على أولئك الذين لا علم لهم بأساليب اللغة العربية، ولا بأحكام الشريعة الإسلامية أن يطعنوا بأمهات المؤمنين وخاصة (عائشة وحفصة) رضي الله عنهما.. حتى يتبين لكل ذي لب أن الله عز وجل اختار خير النساء لخير البشر... وأن من يطعن بأمهات المؤمنين إنما يؤذي رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (التوبة: ٦١).(١)

وختاماً... فإن جامع هذه الورقات يسأل الله عز وجل أن يجعل عمله هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعه به وينفع كل من ساهم في إتمامه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

وإني سائل كل من اطلع على هذا الكتاب ووجد فيه قصوراً أو خطأ ألا يبخل بإبلاغي.. والدعاء بالمغفرة على التقصير... وكل من ينتفع به أن يدعو الله لكاتبه ولوالديه بالرحمة والمغفرة والثواب... فدعاء المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه
د. أمير علي الحداد
شعبان ١٤٤١هـ - أبريل ٢٠٢٠م

---

(١) كتب التفسير التي تم الاستعانة بها هي: تفسير القرطبي - فتح القدير للشوكاني - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - أضواء البيان - جامع البيان للطبري.

(يأيها النبي اتَّقِ الله)

يستسهل بعض الناس الطعن في الصحابة.. حتى يكاد يجزم أننا مثلهم وربما نسبقهم بأعمال الخير التي نعملها!! والبعض يسمح لنفسه أن يردَّ الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ... ويظن أن استنباطه المنطقي أقوى من الأحاديث الثابتة حتى في الصحيحين!! بل بعضهم يتمادى فينتقص من مكانة النبي ﷺ .. ابتداء من أنه (بشر).. ويستشهد ببعض آيات الكتاب - التي يظن أنها تؤيد رأيه - ليرد الأحاديث بل والسنة كلها... وحقيقة هؤلاء أنهم في (جهل مركب).. ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً!!

- لي قريب من هذه الفئة ... لا علم شرعي لديه.. ولا يحفظ إلا اليسير من كتاب الله... ولا يعرف شيئاً عن علم الحديث... كل مؤهلاته أنه أستاذ في التاريخ الإسلامي... ذات مرة استشهد بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ (الأحزاب).

كنت.. واثنان من روّاد المسجد.. في طريقنا إلى ديوان (أبو خالد).. يعقده كل ثلاثاء بعد صلاة العشاء... معظم روّاده من أبناء منطقتنا، إلا أننا لا نلتقيهم لكثرة المساجد... كلٌّ يصلي في المسجد القريب من بيته..

- نعم.. وكيف دار الحوار بينكما؟!

- سألته... هل اطلعت على كتب التفسير لهذه الآية... أجابني..

– القرآن نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء).. ولدي من الخلفية اللغوية ما يؤهلني أن أفهم معاني الكلمات العربية!! فلِمَ الإصرار على الرجوع إلى كتب التفسير أو غيرها... هل يُراد منّا أن نلغي عقولنا!!!

ابتسم (أبو صلاح)...

– هذا منطق كل من لا يريد معرفة الحق.. ويفضل اتباع الهوى.. ليبرر لنفسه منهجه...

– صدقت.. على أية حال.. طلبت منه أن أقرأ في كتب التفسير التي أصبحت – بفضل الله – محمولة في هواتفنا الذكية.. وكان هدفي إسماع بقية الحضور لا إقناعه هو... ليقيني أنه لن يتراجع!!!

وقرأت لهم ما تيسّر من كتب التفسير في بيان هذه الآيات.. فكان مما قرأت – وكنت قد خزنته في ملف جاهز...

(نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨)، أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين، وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه.

ولما كان ثَمَّ طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله، من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهى الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾،

فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له، ولأهله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ تُوكل إليه الأمور المهمة، فيتولاها، ويسهلها على عبده.

نداء النبي ﷺ بوصف النبوءة دون اسمه العلم (محمد) تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يُخاطب بمثل ما يُخاطب به غيره، ولذلك لم يُنادِ في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ (المائدة: ٦٧)، بخلاف الإخبار عنه، فقد يجيء بهذا الوصف كقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ (التحريم: ٨)، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ (الفرقان)، ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ١)، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، ويجيء باسمه العلم كقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب).

وقد يتعيّن إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وتلك مقامات يُقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله ﷺ، أو تلقين لهم بأن يسمُّوه بذلك.

وقد تعيَّن بهذا أن الأمر في قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، والنهي في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وهذا ينبأ أن تشريعاً عظيماً سيُلقى إليه لا يخلو من حَرَجٍ عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ (الأحزاب).

وصف الله رسوله محمداً ﷺ، في هذه الآيات بخمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿**شاهداً**﴾، أي: شاهداً على أمته بما عملوه.

الثاني، والثالث: كونه ﴿**مبشراً ونذيراً**﴾، وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

الرابع: كونه ﴿**داعياً إلى الله**﴾، أي: أرسله الله، يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته، على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله.

الخامس: كونه ﴿**سراجاً منيراً**﴾، وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور، يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها،

حتى جاء الله بهذا النبي الكريم ﷺ ، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم.

– وماذا كانت ردة فعل صاحبك بعد هذه القراءة؟

– قال: أنا لا أنكر شيئاً مما قلت، ولكني لست بحاجة إلى قراءة كل هذه الكتب حتى أعرف المعنى...

– قلت في قرارة نفسي... (كنت أعلم أنك لن تنتفع بشيء من الحق).. ولكن كان همّي بقية الحضور... وأظنهم بفضل الله استفادوا مما سمعوا!!!

(يأيها النبي لِمَ تحرِّم ما أحلَّ الله لك)؟!

- لقد ميّز الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ عن غيره من الأنبياء والرسل حيث لم يخاطبه باسمه في القرآن العظيم.... فلم يرد ولا مرة واحدة (يا محمد).. مع أنه سبحانه خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم.. ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦)، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ (هود: ٧٦).. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١٤٤)... ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ (آل عمران: ٥٥).. أما الرسول محمد ﷺ فقد خاطبه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ثلاث عشرة مرة، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ مرتين..

- ملاحظة جميلة.. مع أني سمعتها من قبل، ولكن ليس بهذا التفصيل..

- وافتُتحت ثلاث سور من القرآن بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.. سورة الأحزاب.. وسورة الطلاق.. وسورة التحريم..

كنت وصاحبي في طريقنا لعزاء جارنا (بوبدر) بوفاة والده... مع أن صاحبي كان متردداً في الذهاب!!! أشار علي أن يتولى سائقه القيادة حتى لا نضيّع وقتنا في إيجاد موقف مناسب..

- في سورة التحريم.. عتاب من الله عز وجل لرسوله ﷺ .. يُضاف إلى صيغ العتاب والتنبيه والإرشاد والتربية التي أنزلها الله عز وجل على رسوله ﷺ .. يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ (التحريم)... كثير من الذين في قلوبهم مرض يستشهدون بهذه الآية للطعن

في أم المؤمنين حفصة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، والحقيقة أنهم بذلك يطعنون بالرسول ﷺ وهم في فعلهم هذا يقلّدون الحاقدين.. ممن أوّلوا الآيات على غير تأويلها.. واتبعوا سبيل المنافقين في الطعن بالصحابة وأمهات المؤمنين... ولو صَفَت قلوبهم لوجدوا في هذه الآية ما يزيدهم إيماناً... ففي تفسير هذه الآية...

هي مدنية وتُسمَّى سورة (النبي).

افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي ﷺ والأمة.

والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرِّم على نفسك ما أحل الله لك.

عن ابن عباس، قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾... إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾، قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين وكانتا زوجتي النبي ﷺ، فذهبت حفصة إلى أبيها، فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته، ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سُؤتني، فقال النبي ﷺ: «**والله لأرضينَّك فإني مُسرّ إليك سرّاً فاحفظيه**»، قالت: ما هو؟ قال: «**إني أُشهدُك أن سريَّتي هذه عليَّ حرام رضاً لك**»، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرّت إليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرّم عليه فتاته، فلما أخبرت بسرّ النبي ﷺ أظهر

الله عز وجل النبي ﷺ عليه ، فأنزل الله على رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾... إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

والصواب من القول في ذلك أن يُقال: كان الذي حرّمه النبي ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحلّه له، وجائز أن يكون ذلك جاريته، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كان، فإنه كان تحريم بشيء كان له حلالاً فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحلّه، وبيّن له تحلّة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرّم على نفسه.

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراماً كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف) و﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ (التوبة: ٣٧).

ولا يخطر ببال أحد أن يتوهَّم منه أنه غيَّر إباحته حراماً على الناس أو على نفسه.

وفي الإتيان بقوله: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ تعليل الحكم هو أن ما أحلَّه الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضُرٍّ أو مرض لأن تناوله شكرٌ لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه.

وفي قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ عذرٌ للنبي ﷺ فيما فعله من أنه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج لأنه أعون على معاشرته مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها لأن الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضاً وذلك مما يختل به حُسن المعاشرة بينهن، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد

معارض بأن تحريم ما أحل الله له يُفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة.

وذُيِّلَ بجملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾، استئناساً للنبي ﷺ من وحشة هذا الملام، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة).

وفي هذه السورة جاء العتاب لطيفاً رقيقاً في غاية الترفق، فقد افتتح العتاب بندائه بوصف النبوة، وفيه من التشريف والتكريم والتطمين على أن ما يذكر بعد لا يؤثر على مقامه العالي فهو النبي المكرّم.

ولو بدأه بالعتاب فقال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾، لَفَرق قلبه ﷺ ولترك أثراً كبيراً، ولو جاء الترفق بعد ذلك، وهذا أسلوب الحبيب الذي لا يريد إلحاق أي هزّة عاطفية في قلب حبيبه مهما كانت الهزّة مغلفة بالأساليب الرفيقة الرقيقة.

ثم يأتي العتاب في صيغة سؤال تلطف ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ومن الأمور المخففة لآثار العتاب ذكر السبب الدافع لرسول الله ﷺ إلى هذا التحريم ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

(يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك)!

مجلسنا العائلي ينعقد كل خميس بعد صلاة العشاء.. يتحدث الجميع عن كل شيء.. وخاصة الأخوات.. وأحياناً يكون الحديث عن مواضيع مختلفة في آن واحد.. كل اثنين أو ثلاثة يتناقشون في شأن يهمهم.. إلا إذا كان هناك إعلان عن حدث أو اجتماع أو قضية خاصة، فأقوم بإدارة النقاش حتى نخرج بنتيجة...

أخي - غير الشفيق - أحمد يشاركنا هذه المجالس ويطرح أسئلة أظنه يسمعها من بعض من يتعلّم منهم ويتردد على مجالسهم...

- ما الذي لم يبلغه الرسول الكريم ﷺ حتى يقول الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾؟!

كان هذا هو سؤاله المباشر لي..

استنصتُ المجلس... حتى تعمّ الفائدة..

- ومن أين فهمت هذا المعنى أن الرسول ﷺ لم يبلغ كل ما أنزل إليه؟

- من مفردات الآية...

- ابتداء.. تعلم أنت وأعلم أنا أن إحاطتنا باللغة العربية ضعيفة جداً فلا يمكننا الاعتماد على فهم المفردات - التي نجهل أغلبها - لفهم كتاب الله.. ألا تتفق معي؟

– نعم أتفق معك..

– جوابك خطأ.. قل (بلى) ولا تقل (نعم).. لذلك وجب علينا أن نرجع إلى كتب التفسير وأقوال العلماء حتى نفهم آيات القرآن كما يريد ربنا ويرضى... وإلا فما تدبّرنا كتاب الله.. ولا عرفنا مراد الله المنزل في كتابه.. هل تتفق معي؟!

– بلى!!!

– قل (نعم) ولا تقل (بلى)..

أردت أن ألطّف جو المجلس وبيّنت له الفرق بين (نعم) و(بلى)..

– هذه الآية يا (بوعلي)... هي أقطع آية في بيان أن الرسول ﷺ بلّغ كل ما أنزل إليه من ربه.. وبلّغه للجميع.. ولم يختص أحداً من الصحابة بآية دون الآخرين... فهي شهادة حق من الله لرسوله ﷺ أنه بلّغ كل شيء على أكمل وجه... ونحن نشهد بذلك لرسولنا ﷺ وهي عقيدة ثابتة عندنا نرجو أن نلقى ربنا بها... وحتى أبيِّن لك سوف أفتح لك كتب التفسير لتقرأ أنت لنا ما قاله العلماء..

– كلا .. لن أقرأ.. فأرفع المنصوب وأنصب المجرور.. إقرأ أنت ونحن نستمع ونستفيد..

– إذن استمع لما ورد في كتب التفسير..

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ (المائدة).

قال ابن عباس: المعنى بلِّغ جميع ما أُنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئاً منه ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديبٌ لِحَمَلَة العلم من أمته ألَّا يكتموا شيئاً من أمر شريعته، وقد عَلِمَ الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئاً من وحيه.

العموم الكائن في (ما أُنزل) يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزله الله إليه لا يكتم منه شيئاً.

وفيه دليل على أنه لم يُسر إلى أحد مما يتعلَّق بما أنزله الله إليه شيئاً، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كَذَب، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وإن لم تفعل ما أُمِرت به من تبليغ الجميع، بل كتمت ولو بعضاً من ذلك فما بلّغت رسالته.

وفي تفسير الطاهر بن عاشور:

موضع هذه الآية في هذه السورة مُعضِلٌ، فإن سورة المائدة من آخر السور نزولاً إن لم تكن آخرها، وقد بلَّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها، فلو أن هذه الآية نزلت في أول مدة البعثة لقلنا هي تثبيت للرسول وتخفيف لأعباء الوحي عنه، كما أنزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (الحجر).

فأما وهذه السورة من آخر السوَر نزولاً وقد أدى رسول الله ﷺ

الرسالة وأكمل الدِّين فليس في الحال ما يقتضي أن يؤمر بتبليغ، فتكون هذه الآية نزلت بسبب خاصٍّ اقتضى إعادة تثبيت الرسول ﷺ على تبليغ شيء مما يثقل عليه تبليغه.

فهي على وتيرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ (المائدة: ٤١)، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (المائدة: ٤٩) فكما كانت تلك الآية في وصف حال المنافقين تُلِيَتْ بهذه الآية لوصف حال أهل الكتاب. والفريقان متظاهران على الرسول ﷺ : فريق مجاهر، وفريق متستر، فعاد الخطاب للرسول ﷺ ثانية بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار، إذ كان نزول هذه السورة في آخر مدة النبي ﷺ .

أُعيد افتتاح الخطاب له بوصف الرسول المشعر بمنتهى شرفه، إذ كان واسطة بين الله وخلقه، والمذكِّرُ له بالإعراض عمَّن سوى من أرسله.

قوله: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾، كما قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ (المائدة).

فكما ثُبِّتَ جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه، حُذِّر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أُنزل من القرآن في شأنهم، إذ لعلَّه يزيدهم عناداً وكفراً، كما دلَّ عليه قوله في آخر هذه الآية: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ (المائدة).

ثم عقَّب ذلك أيضاً بتثبيت جنانه بأن لا يهتم بكيدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

والتبليغ جعْل الشيء بالغاً، والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرسالة للمرسل بها إليه، والأمر بالتبليغ مستعمل في طلب الدوام، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٦).

أي بلِّغ ما أُنزل إليك جميع من يحتاج إلى معرفته، وهو جميع الأمة، إذ لا يُدْرَى وقت ظهور حاجة بعض الأمة إلى بعض الأحكام، على أن كثيراً من الأحكام يحتاجها جميع الأمة.

والذي ظهر من تتبُّع سيرة رسول الله ﷺ أنه كان يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزل عليه ليلاً أخبر به عند صلاة الصبح. وفي حديث عمر، قال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ (الفتح).

وفي الإتيان بضمير المخاطَب في قوله: ﴿إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إيماءٌ عظيم إلى تشريف الرسول ﷺ بمرتبة الوساطة بين الله والناس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم، كما قال في آية آل عمران (١٩٩)، ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ (آل عمران: ١٩٩)، وقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ (النحل).

وفي تعليق الإنزال بأنه من الرب تشريف للمنزَل.

والإتيان بلفظ الرب هنا دون اسم الجلالة لما في التذكير بأنه ربُّه من

معنى كرامته، ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه، كما ينبغي من التعجيل والإشاعة والحث على تناوله والعمل بما فيه.

وعلى جميع الوجوه المتقدمة دلَّت الآية على أن الرسول ﷺ مأمور بتبليغ ما أُنزل إليه كله، بحيث لا يتوهَّم أحدٌ أن رسول الله ﷺ قد أبقى شيئاً من الوحي لم يُبلغه. لأنه لو ترك شيئاً منه لم يبلِّغه لكان ذلك مما أُنزل إليه ولم يقع تبليغه، وإذ قد كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن علمنا أن من أهمِّ مقاصدها أن الله أراد قطع تخرُّص من قد يزعمون أن الرسول ﷺ قد استبقى شيئاً لم يبلِّغه، أو أنه قد خصَّ بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلِّغه للناس عامة. **فهي أقطع آية لإبطال قول من يقول بأن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبوبكر ونسخهُ عثمان، وأن رسول الله ﷺ اختص بكثير من القرآن علي بن أبي طالب، وأنه أورثه أبناءه وأنه يبلُغ وِقر بعير.**

روى البخاري أن أبا جحيفة سأل علياً رضي الله عنه: هل عندكم شيء ما ليس في القرآن وما ليس عند الناس؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهماً يُعطى رجل في كتاب الله وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة، قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)

اجتمعت وثلاثة من المصلّين الدائمين مع إمامنا في ديوان المسجد بعد صلاة المغرب ننتظر صلاة العشاء... أحرص دائماً في هذا المجلس ألّا يخرج الحديث عن تفسير آية.. أو حديث.. حتى أصبح طابعاً لحوارات ديوان المسجد...

بدأ الحوار (أبو مشعل)...

- في قوله تعالى... للرسول ﷺ ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾... أليس فيه صفة لا ينبغي أن تنسب إلى رسول الله ﷺ ؟

- بالطبع لا يمكن أن يوصف الرسول ﷺ بأنه يخشى الناس أكثر من خشية الله... ومع أني لا أعرف دقائق تفسير هذه الآية إلا أن عقيدتي برسول الله ﷺ تمنعني أن أقول هذا الكلام.. دخل علينا ملاحظ المسجد بإبريق الشاي وبعض الموالح والمكسرات أحضرها من مركبة (أبومشعل)...

- ينبغي على كل مسلم أن يقرأ أقوال العلماء في تفسير هذه الآية وأمثالها حتى لا يدع للتردد والشك مجالاً في قلبه... وإليكم ما وجدت في كتب التفسير عن هذه الآية التي هي الآية السابعة والثلاثون من سورة الأحزاب...

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأحزاب).

سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرّع أمراً عاماً للمؤمنين، أن الأدعياء (الأبناء بالتبني) ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبنّاهم، في نكاحهن.

كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه ﷺ أن زينب (كان اسمها برة فغيّره النبي ﷺ)، ستكون من أزواجه، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

فلما أتاه زيد يشكوها، قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من أن الله سيزوجك إياها، ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما علمته: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، وأن لا تباليهم شيئاً، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وإنما فعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾، حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل، ينتسب إليك.

وزيد هو المعني من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسَّر دخوله في ملك رسوله ﷺ، والرسول ﷺ أنعم عليه بالعتق والتبنِّي والمحبّة، ويأتي التصريح باسمه العلم إثر هذه الآية في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وهو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وكان رسول الله ﷺ زوَّجه أم أيمن مولاته فولدت له أسامة بن زيد وطلَّقها. ثم إن رسول الله ﷺ زوَّجه زينب بنت جحش الأسدي حليف آل عبد شمس، وهي ابنة عمته أُميمة بنت عبدالمطلب، وفي سنة خمس بعد غزوة الخندق طلَّق زيد بن حارثة زينب

بنت جحش فزوَّجه رسول الله ﷺ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأمها البيضاء بنت عبدالمطلب وولدت له زيد بن زيد ورُقَية ثم طلّقها، وتزوَّج دُرَّة بنت أبي لهب، ثم طلّقها وتزوّج هند بنت العوام أخت الزبير.

وشهد زيدٌ بدراً والمغازي كلَّها. وقُتل في غزوة مؤتة سنة ثمان، وهو أميرٌ على الجيش وهو ابن خمس وخمسين سنة.

وجملة ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾، عطف على جملة ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ﴾، أي تخفي ما سيبديه الله، وتخشى الناس من إبدائه.

والخشية هنا (كراهية ما يُرجِف به المنافقون)، والكراهة من ضروب الخشية، فليست هي خشية خوف، إذ النبي ﷺ لم يكن يخاف أحداً من ظهور تزوُّجِهِ بزينب.

والتعريف في الناس للعهد، أي تخشى المنافقين، أي يؤذوك بأقوالهم.

وليس في هذا التركيب ما يفيد أنه قدّم خشية الناس على خشية الله، لأن الله لم يكلِّفه شيئاً فعمل بخلافه.

وبهذا تعلَم أن النبي ﷺ ما فعل إلا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيداً بإمساك زوجه وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوّج زينب خشية أن يكون قولهم فتنة لضعفاء الإيمان.

وليس في قوله: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ عتاب ولا لوم، ولكنه تذكير بما حصل له من توقِّيه قالة المنافقين. وتشجيع له وتحقير لأعداء الدين وتعليم له بأن يمضي في سبيله ويتناول ما أباح الله له ولرسله من تناول ما هو مباح

من مرغوباتهم ومحبّاتهم إذا لم يصدُّهم شيء من ذلك عن طاعة ربهم، وقد رُوِيَتْ في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإياك أن تتسرَّب إلى نفسك منها أغلوطة.

ومما يدلُّ لذلك أنك لا تجد فيما يُؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثراً مسنداً إلى النبي ﷺ أو إلى زيد أو إلى زينب أو إلى أحد من الصحابة رجالهم ونسائهم، ولكنها كلها قصص وأخبار وقيل وقال.

ولسوء فهم الآية كَبُرَ أمرها على بعض المسلمين واستفزَّت كثيراً من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب. وقد تصدَّى أبوبكر بن العربي في «الأحكام» لوهن أسانيدها، وكذلك القاضي عياض في «الشفاء».

فزيد كان من أشد الناس اتصالاً بالنبي ﷺ، وزينب كانت ابنة عمته وزوج مولاه ومتبنّاه، فكانت مختلطة بأهله، وهو الذي زوَّجها زيداً، فلا يصحُّ أن يكون ما رآها إلا حين جاء بيت زيد.

وأما إشارة النبي ﷺ على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة، وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة وهو يوقن أن إشارته لا تُمتثل.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد، منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله سمّاه في القرآن، ولم يسمِّ من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان.

ومنها: أن الرسول ﷺ ، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحي إليه، إلا وبلغه، قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشد عليه منها، قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، ولو كان نبي الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، قال: خشي نبي الله ﷺ مقالة الناس.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشير في فراق الزوجة أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها.

علّق (بو محمد).. وكان منصتاً طول الوقت...

- هذه أول مرة أسمع تفسيراً ترتاح له نفسي في هذه الآيات، لأن كثيراً من كتب التفسير ينقل القصة المشهورة... جزاك الله خيراً إمامنا (بويوسف)..

(فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين)

– هناك آيات في كتاب الله إذا قرأتها تخطر ببالي أفكار لا استطيع أن أتقبّلها.. فأتركها.. دون أن أُرضي فكري.. وخاطري..

– لا ينبغي أن تمر عليك آية من كتاب الله عز وجل وتترك فيك هذا الأثر «غير المريح»... بل يجب عليك أن ترجع إلى كتب التفسير وآراء العلماء وأقوال المختصين.. حتى لا يبقى لديك أي حرج أو تساؤل عن أي آية من آيات الكتاب العزيز...

وهنا تدخّل ثالثنا...

– هل لك أن تذكر مثالاً لهذه الآيات؟!

– مثلاً قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ (الشعراء). ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (يونس). وكذلك: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يونس).

كنا ثلاثة نفر في طريقنا لأداء العمرة في شهر شعبان.. اعتدنا أن نذهب كل عام بالطائرة... قررنا أن نذهب براً هذه المرة لنزور إخوة لنا في (الزلفى).. وليشتري (أبوسالم) بعض الحاجيات من (الحفر)..

– هذه الآيات الثلاث وأشباهها في كتاب الله فيها خطاب لرسول الله ﷺ ... ومع أن ظاهرها نهي له ﷺ أن يقع في الشرك – وهو الذي بعثه الله لإقامة التوحيد وهدم الشرك... إلا أن المراد غيره كما في كتب التفسير.. وإليكما ما ورد في بعض الكتب...

أخذ صاحبنا يتعامل مع هاتفه الذكي... لم يتطلّب الأمر سوى دقائق قليلة...

- اسمعا ما جُمِعَ لكما...

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ (الشعراء)، خطاب لغير معيَّن فيعُمُّ كل من يسمع هذا الكلام، ويجوز أن يكون الخطاب موجَّهاً إلى النبي ﷺ لأنه المبلِّغ عن الله تعالى، لبيان أهمية هذا النهي مع تحقق أنه منتهٍ عن ذلك، فتعيَّن أن يكون النهي للذين هم متلبِّسون بالإشراك، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر)، والمقصود من مثل ذلك الخطاب غيره ممن يبلغه الخطاب.

وفي هذا تعريض بالمشركين أنهم سيعذَّبون للعلم بأن النبي ﷺ وأصحابه غير مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، قد ورد في سورة «بني إسرائيل»، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإسراء)، بالدليل القرآني أن النبي ﷺ يُخاطَب بمثل هذا الخطاب، والمراد التشريع لأمته، وقوله هنا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، جاء معناه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ (الإسراء)، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ

﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ (يونس)، وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك، التكذيب به، وهو آيات الله البينات، وكذلك عطف ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهو أصرح في التعريض بهم ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾، وهذا يقتضي أنهم خاسرون.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ (الأنعام). قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمد، للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله، ويحثّونك على عبادتها: أغير الله فاطر السماوات والأرض، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد، أتخذ ولياً هو له عبد مملوك وخلق مخلوق؟ وقل لهم أيضاً: إني أمرني ربي: ﴿أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾، يقول: أول من خضع له بالعبودية، وتذلل لأمره ونهيه، وانقاد له من أهل دهري وزماني ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾، يقول: وقل: وقيل: لي: لا تكونن من المشركين بالله، الذين يجعلون الآلهة والأنداد شركاء.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ أي: ونهيت أيضاً، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليَّ، وأوجب الواجبات.

وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عمّا سواه، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾، لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾، نهيٌ مؤكّد لمعنى الأمر الذي قبله تصريحاً بمعنى (حنيفاً)، وتأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرؤ من الشرك.

وقد تقدَّم غير مرة أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ ونحوه أبلغ في الاتصاف من نحو: لا تكن مشركاً، لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك. هذا النهي موجَّهٌ إلى النبي ﷺ في الظاهر، والمقصود به إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله، إذ يزعمون أنهم معترفون بإلهية الله تعالى، وأنهم إنما اتخذوا له شركاء وشفعاء، فبيَّن لهم أن الله لا إله غيره، وأن انفراده بالإلهية في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك، فجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في معنى العلة للنهي الذي في الجملة قبلها.

- كلام جميل يشفي الغليل ويريح البال، ويزيل القلق والشك والترد..
- وهذا الذي يجب على كل من يقرأ القرآن أن يفعله.

(... فتطردهم فتكون من الظالمين)

- لا شك أن الله -عز وجل- كرّم الأنبياء والرسل وزكاهم في كتابه، وبيّن بالآيات المحكمات أنهم خير البشر وصفية الخلق، كقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (آل عمران)، وقوله -عز من قائل-: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنعام)، وغيرها من الآيات البينات، ولا شك كذلك أنه ميّز الرسول ﷺ وأكرمه وأمرَنا بتبجيله وتعظيمه ونصرته واتباعه، في آيات كثيرة؛ ففي أكثر من أربعين موضعا قَرَن الله -سبحانه وتعالى- بين لفظ الجلالة والرسول ﷺ، على سبيل المثال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ (البقرة). ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء).

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ

مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء).

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (المائدة: ٣٣).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المائدة).

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (الأنفال).

فلا يستطيع أحد أن ينكر مكانة الرسول ﷺ عند الله -عز وجل- وجاء الخطاب واضحاً بيناً يأمرنا بنصرة رسول الله ﷺ وتوقيره.

كنت وصاحبي بانتظار أحد علماء المغرب العربي دُعي لإلقاء مجموعة محاضرات ودورة شرعية في إحدى إدارات مساجد وزارة الأوقاف الكويتية...

كانت صالة استقبال المسافرين شبه فارغة من المستقبلين.. فقد كان الوقت ضُحى.. وأحد أيام عمل وليس نهاية الأسبوع ولم يكن موسم سفر... أخذنا مقعدين في أحد المقاهي ننتظر ضيفنا..

- ومع ذلك، فإن بعض الآيات فيها خطاب «شديد» للنبي ﷺ ..

نظر إليّ صاحبي معترضاً.

– لا أظن أن وصف خطاب الله لرسوله ﷺ بكلمة «شديد» لائقة...

تابعت حديثي:

– مثلاً قال الله –تعالى–: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام).

– أظن أنه ينبغي على كل مسلم أن يرجع إلى كتب التفسير ليفهم المعنى المراد من هذه الآيات وغيرها التي فيها «تحذير» للنبي ﷺ.

– أحسنت، ولذلك جهّزت لك ما ورد في تفسير هذه الآية، اسمع.

فتحت صفحة المذكرات في هاتفي وأخذت أقرأ:

الطبري:

جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب، في أناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حوله حقروهم، فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد؛ فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت! قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة، ودعا علياً – رضي الله عنه – ليكتب، قال: ونحن

قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بهذه الآية فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ (الأنعام: ٥٤)! فكنا نقعد معه.

السعدي:

هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار؛ فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدَعون ما يضرهم: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: لا من دون الله: ﴿وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: من يتولي أمرهم فيحصل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك، أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، فأهل العبادة من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، وليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل مستحقون لموالاتهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم؛ لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعِزّاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذِلاء.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: كل

له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر، أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبّر نفسه عليهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسّن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه -رضي الله عنهم-.

وكان سبب نزول هذه الآيات أن أناسا من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم، واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها.

ومعنى يدعون ربهم يعلنون إيمانهم به دون الأصنام إعلاناً بالقول، وهو يستلزم اعتقاد القائل بما يقوله؛ إذ لم يكن يومئذ نفاق، وإنما ظهر المنافقون بالمدينة.

والغداة: أول النهار، والعشي من الزوال إلى الغروب، والمعنى أنهم يدعون الله اليوم كله، فالغداة والعشي قصد بهما استيعاب الزمان والأيام كما يقصد بالمشرق والمغرب استيعاب الأمكنة.

وجملة ما عليك من حسابهم من شيء تعليل للنفي عن طردهم، أو إبطالٌ لعلة الهمّ بطردهم، أو لعلة طلب طردهم.

والمعنى: ما عليك من حساب المشركين على الإيمان بك أو على عدم الإيمان شيء؛ فإن ذلك موكول إليّ فلا تظلم المؤمنين بحرمانهم حقاً لأجل تحصيل إيمان المشركين، فيكون من باب قوله -تعالى-: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ

فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء).

ويفيد هذا الكلام التعريض برؤساء قريش الذين سألوا إبعاد الفقراء عن مجلس الرسول ﷺ حين يحضرون، وأوهموا أن ذلك هو الحائل لهم دون حضور مجلس الرسول ﷺ والإيمان به؛ فخاطب الله رسوله ﷺ بهذا الكلام إذ كان الرسول ﷺ هو المسؤول أن يقصي أصحابه عن مجلسه ليعلم السائلون أنهم سألوه ما لا يقع، ويعلموا أن الله أطْلَع رسوله ﷺ على كذبهم، وهم لو كانوا راغبين في الإيمان لما كان عليهم حساب أحوال الناس ولاشتغلوا بإصلاح خويصتهم، فيكون الخطاب على نحو قوله -تعالى-: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر). وقد صرح بذلك في قوله بعد ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأنعام)، أي حسابهم ليس عليك كما أن حسابك ليس عليهم بل على نفسك؛ إذ كل نفس بما كسبت رهينة، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

(فلا تكن من الممترين)

مِن نعم الله علي أن رزقني جيران مميزين في المنطقة التي انتقلنا إليها.. (بو عبدالله) على يميني، و(بوفيصل) على يساري كلاهما ملتزم بصلاة الجمعة في جامعنا... (بوفيصل) يعمل في مركز خدمة المواطن وهو في سن ابنتي الكبرى... و(بوعبدالله).. متقاعد.. يصغرني بعام واحد فقط...

خرجنا من صلاة الجمعة راجعين إلى مساكننا مشياً على الأقدام...

- بعض الآيات مثل التي قرأها إمامنا اليوم عن تحول القبلة ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ (البقرة)... أشعر أنها لا تعني النبي ﷺ .. وإنما آخرين قد يصيبهم شك أو ريب.. أما النبي ﷺ .. فليس لديه شك على الإطلاق في القضايا التي توحىٰ إليه.. هكذا بدأ الحوار (بوفيصل)...

- هذه الآية.. تكرر معناها في أربعة مواضع من كتاب الله.. في سورة آل عمران.. بعد ذكر عيسى (عليه السلام).. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (آل عمران).. وفي سورة الأنعام: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (الأنعام). وفي سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس).

– ليتك تبحث في مكتبتك الشاملة التي تحملها في هاتفك عن تفسير هذه الآيات...

– لك ذلك يا أبا عبدالله... ولكن تجلسون عندي ربع ساعة حتى نقرأ ما نجد في كتب التفسير...

إستجابا لطلبي... وبالفعل بلغنا منزلي.. أخذنا مجالسنا في مكتبي الصغير... وقد اكتمل بحثي عن تفسير هذه الآيات...

– إليكما ما وجدت...

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ (البقرة).

الامتراء: الشك، نهاه الله سبحانه عن الشك في أن الأمر حق من ربه، أو في كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو تعريض للأمة، أي: لا يكن أحد من أمته من الممترين، لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه.

وهو تحذير للأمة وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم ليكون خطاب النبي ﷺ بمثل ذلك وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وأولاهم بكرامته دليلاً على أن من وقع في مثل ذلك من الأمة قد حقَّت عليه كلمة العذاب، وليس له من النجاة باب.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ (آل عمران).

التشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أب كآدم، لا على أنه خُلِقَ من تراب.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ لما فيه من إيماء إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بيّن الله لهم في هذه الآيات: أي فإن استمروا على محاجّتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة.

ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبيّنت لهم، فلم يبق أوضح مما حاججتهم به فعلمت أنهم إنما يحاجونك عن مكابرة، وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ (الأنعام).

والمعنى: أفغير الله أطلب لكم حكماً وهو كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصَّل، أي المبين. و(الحَكَم) أبلغ من (الحاكم)، إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح. والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسَمَّى بها من يحكم بغير الحق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى.

وقيل: من أسلم منهم كسلمان وصهيب وعبدالله بن سلام. ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾ أي القرآن. ﴿مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، أي: أن كل ما فيه من الوعد والوعيد حق ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، أي: من الشاكين في أنهم يعلمون أنه منزَّل من عند الله.

ويحتمل أن يكون المخاطب الرسول ﷺ والمقصود من الكلام المشركون الممترون، على طريقة التعريض.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ (يونس).

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، أي لست في شكٍّ ولكن غيرك شك.

معنى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ أي: قل يا محمد للكافر: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، أي: يا عابد الوثن إن كنت في شك من القرآن، فاسأل من أسلم من اليهود، يعني عبدالله بن سلام وأمثاله، لأن عَبَدَة الأوثان كانوا يُقرُّون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا من يُقرُّون بأنهم أعلم منهم، هل يبعث الله برسول من بعد موسى.

ويجوز أن يكون خطاباً لغير معين، ليعم كل من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب، أي ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ - أيها السامع - ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، أي الشاكين في كون القرآن من عند الله، فيكون التفريع على قوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي فهذا أمر قد اتضح. فلا تكن ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ فيه. ويحتمل أن يكون المُخاطَب الرسول ﷺ، والمقصود من الكلام المشركون الممترون، على طريقة التعريض.

(ولا تكونن من المشركين)

لا زلنا نتدبر آيات القرآن التي فيها خطاب الله لرسوله ﷺ .. ولأمته من بعده لنُزيل ما قد يخطر في بال أحدهم من شبهات.. يقول عز وجل في سورة القصص:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص).

كنت وصاحبي في أول اجتماع لنا خارج المسجد بعد رمضان... خرجنا نتمشى بموازاة شاطئ البحر بعد صلاة عشاء أول يوم من أيام عيد الفطر...

– نعم هاتان الآيتان ظاهرهما خطاب «شديد» للنبي ﷺ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، مع أنه ﷺ .. معصوم عن الذنوب وما أرسله الله إلا ليقيم التوحيد ويحارب الشرك فكيف يقول له.. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؟!

– أظن أننا يمكن أن نتبع قاعدة واحدة ثابتة لهذه الآية ومثيلاتها.. وهي أن المقصود أمة الإسلام من بعد النبي ﷺ وفيه تعريض لغيره.. كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف)، ولو تتبعنا كتب التفسير لوجدنا ذلك موضحاً كما يلي...

وذلك أنه ﷺ أرسله الله إلى قوم هم في ضلال مبين، وأن الذي رحمه فآتاه الكتاب على غير ترقُّب منه لا يجعل أمره سُدى فأعقب ذلك بتحذيره من أدنى مظاهرة للمشركين.

والظهير: المُعين. والمظاهرة: المعاونة، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح، فلما شمل النهي جميع أكوان المظاهرة لهم اقتضى النهي عن مصانعتهم والتسامح معهم.

وهذا المعنى يناسب كون هذه الآيات آخر ما نزل قبل الهجرة وبعد متاركته المشركين ومغادرته البلد الذي يغمرونه.

وقيل: النهي للتهييج لإثارة غضب النبي ﷺ عليهم وتقوية داعي شدته معهم.

وتوجيه النهي إليه عن أن يصدُّوه عن آيات الله في قوله ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن نهيه عن أن يتقبَّل منهم ما فيه صدٌّ عن آيات الله كما يقول العرب: لا أعرفنَّك تفعل كذا، كنَّوا به عن: أنه لا يفعله.

والمقصود: تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين في شيء من شؤون الإسلام.

والأمر في قوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل، أي لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذاراً لهم.

هذا النهي موجَّه إلى النبي ﷺ في الظاهر، والمقصود به إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله، إذ يزعمون أنهم معترفون بإلهية الله تعالى، وأنهم إنما اتخذوا له شركاء وشفعاء، فبيَّن لهم أن الله لا إله غيره، وأن انفراده بالإلهية في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك، فجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في معنى العلة للنهي الذي في الجملة قبلها.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وفيه تعريض بغيره كما تقدم، لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فإنه تعريض لغيره.

- هل نستطيع أن نطبق هذه القاعدة في جميع الآيات التي فيها خطاب للنبي ﷺ بهذه الطريقة؟!

- نعم.. إن كان الخطاب فيه (نهي عن الشرك) أو (ميل للمشركين)، أو (قبول بشيء من معتقدات أهل الكتاب الباطلة)... وذلك أن النبي ﷺ معصوم عن كل ذلك... فإذا كان الله يحذر نبيه ﷺ الذي هو أشرف خلقه، وأعلم الخلق بالله وأتقى الخلق لله... إذا كان الله سبحانه يحذره من هذه الأمور فغيره من باب أولى كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر).

ظاهر هذه الآية تحذير للرسول ﷺ ولإخوانه الأنبياء من الوقوع في الشرك... وإلا حبطت أعمالهم... وحيث إن الأنبياء جميعاً لم يبعثوا إلا لإقامة التوحيد وهدم الشرك والكفر... وأنهم جميعاً معصومون من الوقوع في الشرك، ففي الآية تحذير شديد لجميع الخلق من الوقوع في هذا الذنب... وأيضاً فيه بيان لشدة الذنب.

بلغنا مجلساً هادئاً... في زاوية أحد المقاهي.. أخذنا أماكننا وطلبنا مشروبات ساخنة...

- ولكن هناك من يستغل هذه الآيات للطعن برسول الله ﷺ وأنه قد

يقع منه (شرك) و(ميل) للمشركين، و(محاباة) للكفار.. و(إعراض) عن الدعوة إلى الله...

– نعم كان هناك ... وسيظهر غيرهم.. من يقول ذلك... هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ (آل عمران: ٧)... ولن يستطيعوا أن ينقصوا من مكانة النبي ﷺ شيئاً، فقد تكفّل الله بذلك في الدنيا والآخرة... ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

(ولا تكن من الغافلين)

- بعض المسلمين يبالغ في حبه لرسول الله ﷺ فينفي عنه بعض صفات البشرية، كوجود الظل.. وقضاء الحاجة.. والرغبة في الشهوات الفطرية، ويظن أن هذه الأمور لا تليق بمقام النبوة...

- هؤلاء يتلقّون عقيدتهم.. بالوراثة... ولا يبذلون جهداً في طلب العلم الشرعي.. الصحيح... وهم موجودون في الأمة الإسلامية... ولو أنهم قرأوا القرآن.. بعلم وفهم وتدبر لما تبنّوا هذه العقائد..

ففي سورة الكهف يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

وفي سورة فصلت يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ (فصلت).

من أُسس العقيدة: القول ببشرية الرسول ﷺ ... في كل شأن من شؤون البشر... هذا هو الأصل... وما لم يكن كذلك لا بد من إيراد الدليل الصحيح عليه...

كنت وصاحبي في زيارة لأحد مساجد الهند... وكان مرافقنا يبيّن لنا عقائد بعض الناس في تلك القرية التي كنّا سنقضي ليلتنا فيها...

- بل الآيات في بشرية الرسول أكثر من ذلك ... مثل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (الضحى).

ومثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى).

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت).

وقوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف).

قاطعني مرافقنا...

– وهل يجوز أن يوصف الرسول ﷺ بأنه كان من الغافلين؟؟ وهذه مشكلةُ كثير من الأعاجم... تشابه الألفاظ واختلاف المعنى.

أجبته..

– أنا أقرأ لك آيات من كتاب الله... ربنا سبحانه وتعالى قال لرسوله... ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.. بل لقد حذّر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يكون من الغافلين، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (الأعراف).

ولكن تعالَ... نتدبر معنى (الغفلة) في حق النبي ﷺ ...

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وإن كنت يا محمد، ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: إذ قال لأبيه يعقوب بن إسحاق: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ (يوسف: ٤)، يقول: إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً.

وكما في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾، والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يُراد بك من أمر النبوة، واختار هذا الزجاج. وقيل: معنى ضالاً: لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك.

والغفلة: انتفاء العلم لعدم توجُّه الذهن إلى المعلوم، والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم.

ومفهوم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ مقصود منه التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن.

قال النبي ﷺ : «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**» (البخاري)، أي المشركين الذين مثلُهم كمثل من لا يرفع رأسه لينظر.

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علَّمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب الله – جاء في غير هذاالموضع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ (النساء).

فقوله في آية «يوسف»: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ (يوسف)، كقوله هنا: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ (الشورى: ٥٢)، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ (الضحى)، على أصح التفسيرات.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾، ولا تكن من اللاهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره، وما فيه من عجائبه، ولكن تدبر ذلك وتفهمه، وأشعره قلبك بذكر الله، وخضوع له، وخوف من قدرة الله عليك، إن أنت غفلت عن ذلك. والمقصود أمة محمد ﷺ فهو ﷺ خير من استمع القرآن وخير من تدبره وخير من خشع وعلم عن الله سبحانه وتعالى.

(لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً)

- إن الله -تبارك وتعالى- تكفل بتربية أنبيائه ورسله، وجعلهم خيرة البشر، يبلّغون رسالات ربهم على أحسن وجه؛ فقال لموسى -عليه السلام-: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ (طه)، وقال عن يحيى -عليه السلام-: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (آل عمران)، وقال عن النبي محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم).

وعلى العموم يقول الله -عز وجل- عن أنبيائه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص) ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ (ص)، ومع ذلك عندما يخاطبهم الله -عز وجل- في كتابه، يبين لهم... ويرشدهم... ويلومهم... ويعاتبهم... ليكونوا أكمل قدوة لغيرهم...

- مقدمة جميلة... فما هي الآيات التي ستكون موضوع حديثنا اليوم...؟

- الآيات من سورة الإسراء، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (الإسراء).

- سورة الإسراء من السور التي أحفظها وأحب قراءتها في الصلاة.

كنت وصاحبي في جولة مسائية، وذلك أن درجة الحرارة في النهار لا تقل عن الأربعين... وتكون إلى الخمسين أقرب معظم الأوقات.

كان هدفنا أحد المحلات في مركز المدينة يريد صاحبي أن يشتري منه غرضاً لمنزله.

- ماذا ورد في تفسير هذه الآيات مع علمي ويقيني وعقيدتي الراسخة أن الرسول ﷺ لم يكن ليفتري على الله شيئاً، ولا أن يأتي بأمر من عنده؟

قَلَّب صاحبي هاتفه الذكي... جمع بعض ما ورد في كتب التفسير... وأخذ يقرأ...

ورد أن قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح، يكلمونه ويفخمونه ويسوّدونه ويقاربونه، وكان في قولهم أن قالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا؛ فمازالوا يكلمونه حتى كاد أن يقارفهم، ثم منعه الله وعصمه من ذلك؛ فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

عن مجاهد قال: قالوا له: ائت آلهتنا فامسسها؛ فذلك قوله: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، وقال آخرون: إنما كان ذلك أن رسول الله ﷺ همّ أن يُنظِر قوماً بإسلامهم إلى مدة سألوه الإنظار إليها.

وذلك أن ثقيفا كانوا قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله أجِّلنا سنة حتى يُهدىٰ لآلهتنا؛ فإذا قبضنا الذي يهدى لآلهتنا أخذناه، ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة؛ فهمّ رسول الله ﷺ أن يعطيهم، وأن يؤجلهم؛ فقال الله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، يقول الله -تعالى- ذكره: ولولا أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، يقول:

لقد كدت تميل إليهم وتطمئن شيئاً قليلاً، وذلك ما كان ﷺ همَّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله.

عن قتادة في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾؛ فقال رسول الله ﷺ: لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ومع هذا فـ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ من كثرة المعالجة ومحبتك لهدايتهم.

ولو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، أي لأصبناك بعذاب مضاعف في الحياة الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ينقذك مما يحلُّ بك من العذاب، ولكن الله -تعالى- عصمك من أسباب الشر ومن البشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

وركون النبي ﷺ إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع؛ لأن الآية قد نفته بأربعة أمور، وهي: (لولا) الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضى أنه ما كان يقع الركون، ولكن يقع الاقتراب منه، والتحقير المستفاد من «شيئا»، والتقليل المستفاد من «قليلا» أي لولا إفهامنا إياك وجه الحق، لخُشي أن تقترب من ركونٍ ضعيفٍ قليلٍ، وذلك لم يقع، ودخلت (قد) في حيز الامتناع؛ فأصبح تحقيقها معدوماً. أي لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع لأننا ثبتناك.

لأذقناك ضعف العذاب في الحياة وضعف العذاب في الممات: فضعف عذاب الحياة، هو تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة. أي العمر بزوال ما كان يناله من بهجة وسرور بتمام دعوته وانتظام أمته، ذلك أن يتمكن منه أعداؤه، وعذاب الممات أن يموت مكموداً مستذلاً بين كفار يرون أنهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه.

وقيل: معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم.

وبيّن في موضع آخر: أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحي إليه وأنه امتنع أشد الامتناع، وقال لهم: إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه، بل يتبع ما أوحى إليه ربه، وذلك في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ (يونس).

بيّن -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة تثبيته لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركون إلى الكفار، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات، أي مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ وبهذا جزم القرطبي في تفسيره، وقال بعضهم:

المراد بضعف عذاب الممات، العذاب المضاعف في القبر، والمراد بضعف الحياة، العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث؛ وبهذا جزم الزمخشري وغيره، والآية تشمل الجميع.

وهذا الذي ذكرناه هنا من شدة الجزاء لنبيه -لو خالف- بينه في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحاقة).

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى، كان الجزاء عند المخالفة أعظم -بينه في موضع آخر- كقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ (الأحزاب)، ولقد أجاد من قال:

وكبائر الرجل الصغير صغائر

وصغائر الرجل الكبير كبائر

(ولئن اتبعت أهواءهم)

قول الله سبحانه وتعالى لنبيه...

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة)... وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الرعد).

- جميع الآيات التي فيها خطاب للنبي ﷺ يجب أن ترجع إلى الثوابت التالية:

- الرسول ﷺ هو أكمل البشر خُلُقاً وأعلم الخلق بالله وأتقى الخلق لله عز وجل...

- الرسول ﷺ أحب الخلق إلى الله، وقد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر...

- الرسول ﷺ أدى ما كلِّف به كاملاً وأشهد الله على ذلك ولم يغيّر شيئاً ولم يُخفِ شيئاً...

- الرسول ﷺ معصوم عصمة كاملة من الله عز وجل...

- الرسول ﷺ بشرٌ يجري ما يجري على البشر في غير أمور الرسالة وتبليغها...

صاحبي له أخ يجادل في قضايا العقيدة والسنة والتفسير... حصيلته

العلمية ما يستمع إليه من محاضرات (عدنان إبراهيم) في اليوتيوب وما يتلقفه من هنا وهناك في وسائل التواصل الاجتماعي...

- أنا أرى ألا تناقش أمثال هؤلاء... لأن مناقشة (الجاهل المركب)... لن تنفعه... وربما أضرت بمن يستمع إليكما ممن لا أساس علمي لديه... وهذه مشكلة كبيرة أيامنا هذه أن الجميع أباح لنفسه التحدث في القضايا الشرعية... ابتداء من قضايا الطهارة والوضوء مروراً بتحريم الخمر والنكاح بغير ولي... وانتهاء بقضايا الغيب والبعث والجنة والنار وصفات الله عز وجل... مع أنهم لا يجرؤون أن يتكلموا في القضايا السياسية إن لم يكونوا من أهل السياسة ولا في الأمور الطبية إن لم يكونوا من أهل الطب ولا في المشكلات الهندسية إن لم يكونوا من خريجي الهندسة المتخصصة... ولكن الشريعة... الكل يستبيح الحديث بها...

- صدقت والله... والشكوى لله عز وجل من هؤلاء وأعوانهم... لنرجع إلى الآيات من سورة البقرة والرعد... ماذا ورد في تفسيرها...

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهوّد وتنصّر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي أخبرتك من نبئهم في هذه السورة - ما لك من الله من ولي ولا نصير، ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك.

وقد قيل: إن الله تعالى ذِكره أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ، لأن

اليهود والنصارى دعته إلى أديانها، وقال كل حزب منهم: إن الهدى هو ما نحن عليه دون ما عليه غيرنا من سائر الملل. فوعظه الله أن يفعل ذلك، وعلمه الحجة الفاصلة بينهم فيما ادعى كل فريق منهم.

فأمرهُ بأن يقول لهم: إنَّ هدى الله هو الهدى الحقيقي، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة، والكتب المنحرفة، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ إن اتَّبع أهواءهم، وحاول رضاهم، تعريضاً لأمته، وتحذيراً لهم أن يواقعوا شيئاً من ذلك، وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجُف له القلوب وتتصدّع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدِّهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه ليناً لا يُرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علَّمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بيِّنة، فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة.

ومفهوم هذا المصرَّح به في آيات أخرى، أن ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذي يكون سبباً لتوليه - تعالى - له ونصره إياه عليهم. ومن المعلوم أن شرط (إن) لا يقتضي الوقوع، فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ ، وإنما فُرِضَ لبيان مضمونه الذي ذكرنا، وفيه أن من سنن الله تأييد متَّبعي الهدى على علم صحيح، وأنهم هم الغالبون المنصورون.

مَنْ تدبر هذا الإنذار الشديد الموجَّه من الله – تعالى – إلى نبي الرحمة، المؤيد منه بالكرامة والعصمة، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة فإن الله – تعالى – يخاطب الناس كافة في شخص النبي ﷺ وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتَّبع أهواءهم في حال من الأحوال، وقد عصمه من الزيغ والضلال، إنما جاء على هذا الأسلوب، ليرشد من يأتي بعده ممن يتَّبع سنته ويأخذ بهديه.

وقوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾، تحذير لكل من تلقَّى الإسلام أن لا يتّبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، جاء على طريقة تحذير النبي ﷺ مثل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الرعد).

ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً، عربياً أي: محكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لِئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبعه وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله – مع أنه معصوم – ليمتنَّ عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البيّن الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

لما ذكر حال تلقّي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عرَّج على حال العرب

في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي المشركين له مع أنهم أولى الناس بحُسن تلقّيه إذ نزل بلسانهم مشتملاً على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم. وقد جعل الغرض التنويه بعلو شأن القرآن لفظاً ومعنى. وأدمج في ذلك تعريض بالمشركين من العرب.

فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه (حكماً)، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنّى عنه بكونه (عربياً)، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة.

والولي: النصير. والواقي: المدافع.

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم.

(فاستقم كما أمرت)

- بعد الاجتماع الذي عقد في مملكة البحرين (٢٦-٢٧ يونيو ٢٠١٩).. حول قضايا اقتصادية تتعلق بالقضية الفلسطينية، ظهرت إعلانات تقول: (لا يضرهم من خذلهم)، وصورة للمسجد الأقصى، ولا أعرف ما قصد صاحب الفكرة، ولكن الظاهر: «أن من خذل الفلسطينيين لن يضرهم»، ولكن الاستشهاد بهذا المقطع من حديث النبي ﷺ غير صحيح، ويوحي بأمور لم ترد في شرح الحديث.

- هل هذا الحديث ثابت عن رسول الله ﷺ؟

- نعم، ورد في الصحيحين والمسند والسنن.

عن عمير بن هاني أنه سمع معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، وهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم على ذلك**»، قال معاذ: وهم بالشام؛ فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذا يقول وهم بالشام. (البخاري) وفي صحيح مسلم، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**».

- **وفي شرح الحديث:**

المراد بقوله ﷺ: حتى يأتي أمر الله من الريح التي تأتي فتأخذ روح

كل مؤمن ومؤمنة، وأن المراد برواية من روى (حتى تقوم الساعة) أي تقوم الساعة وهو خروج الريح، وأما هذه الطائفة، فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال: أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟ قال القاضي عياض إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث.

ولا شك أن القائمين على القضية الفلسطينية اليوم ليسوا المعنيين ولا الموصوفين بهذا الحديث... على أية حال... عقيدتنا أن القدس ستؤول للمسلمين عندما يقيّض الله أولئك العباد الذين يلتزمون دين الله على نهج رسول الله ﷺ ... أما غير ذلك فهو متاجرة بقضية فلسطين ضحيتها أهلنا في الأرض المباركة...

- وما مناسبة حديثك هذا ونحن نتحدث عن آيات الله وخطابه لرسوله ﷺ؟!

- في هذه الآية من سورة هود يأمر الله -سبحانه وتعالى- نبيه، والأمر للأمة، وإلا فالنبي ﷺ أول من يلتزم أوامر الله وأتقى الخلق لله، وأعلم الخلق بالله ﷺ، يقول -تعالى-: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْٓاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (هود).

عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية شمر رسول الله ﷺ، فما رؤي ضاحكاً.

أمَر -سبحانه- رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له -سبحانه- فقال: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي كما أمرك الله، فيدخل في ذلك ما أمره به وما نهاه عنه؛ لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، وأمته تابعة له في ذلك. ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾..الطغيان مجاوزة الحد، لما أمر الله -سبحانه- بالاستقامة المذكورة بيّن أن الغلو في العبادة والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه؛ وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أَذِن الله به.

والاستقامة هي العمل بكمال الشريعة؛ بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر، ومتعلقها العمل بالشريعة بعد الإيمان؛ وقد أشار إلى صحة هذا المعنى قول النبي ﷺ لأبي عمرة الثقفي لما قال له: «**يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم**» (مسلم)، فجعل الاستقامة شيئا بعد الإيمان.

ووجه الأمر إلى النبي ﷺ تنويهاً بشأنه ليبني عليه قوله: كما أمرت فيشير إلى أنه المتلَقي للأوامر الشرعية ابتداء. وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله: ومن تاب معك.

وقد جمع قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أصول الصلاح الديني وفروعه لقوله: كما أمرت.

قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من

هذه الآية عليه؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب قال: «**شيبتني هود وأخواتها**» (صححه الألباني).

وسئل عما في هود فقال: قوله فاستقم كما أمرت.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله قد شبت، قال: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**». قال السدى، وقيل: «استقم» اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك، فتكون (السين) سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران، والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امتثال أمر الله.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي استقم أنت وهم، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته.

قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تَودّوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم، وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا الإدّهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم.

قوله -تعالى-: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيل: أهل الشرك، وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ

بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنعام)، وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة. قوله -تعالى-: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقكم. بمخالطتهم ومصاحبتهم ومما لأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم.

(ولا تكن للخائنين خصيماً)

- من أخطر مشكلاتنا في الزمن الحاضر انتشار وسائل التواصل الاجتماعي؛ بحيث أصبح المرء يلقي الكلمة متكئاً على أريكته في بيته فتصل خلال دقائق إلى آلاف الناس، ولا ينقضي اليوم إلا وقد بلغت مشارق الأرض ومغاربها، وكل ما يقال في هذا الوسط يجد من يتلقاه، ويصدقه، وينقله، ويدافع عنه، مهما بلغ من عدم المصداقية وفقدان أسس النقل العلمي، مثلاً، انتشر منذ فترة قصيرة تساؤل (أين خطب الجمعة للرسول ﷺ التي ألقاها على مدار السنوات العشر التي قضاها في المدينة؟) وترددت هذه المقولة وكأن الصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم أخفوا خطَب النبي ﷺ، ثم انتشرت مقولة تشكك في (صحيح البخاري)، وكأن أحاديث الصحيح أصبحت كأحاديث المجلات والجرائد، مع أنه لم يطعن أو يشكك أحد من أهل الاختصاص في (البخاري)، وكل من تكلم عنه منتقصاً إياه كانوا جميعاً دون استثناء، ليسوا من أهل الاختصاص بعلم الحديث، وهكذا أصبح التشكيك في ثوابت هذه الأمة ديدن من يريد الانتشار والظهور في وسائل التواصل الاجتماعي.

- صدقت نسأل الله الثبات والعافية من هذه الفتن.

كنت وصاحبي نراجع حفظنا لسورة المائدة بانتظار شيخنا -الشيخ حسن- لنقرأ عليه الجزء المقرر ليوم السبت، بعد صلاة العصر.

ومنهم - أي الذين أصبحوا يتكلمون في الدين وليسوا من أهل الاختصاص- من يقول عن رسول الله ﷺ أموراً يقشعر منها الجلد؛ فيقول

عند قول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء)، لقد خاصم الرسول ﷺ عن الخائنين ولذلك عاتبه الله -تعالى-! ولم يكلف نفسه عناء الاطلاع على تفسير هذه الآية.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله العافية، وما مناسبة هذه الآية يا أبا أحمد؟

- أخذ صاحبي يبحث عن ملف التفسير في هاتفه وبدأ يقرأ منه هذه تفسير الآيات من سورة النساء وتبدأ من الآية (١٠٥).

عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير، ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: «قال فلان كذا»، و«قال فلان كذا»، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث! فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة

أضموا وقالوا: ابن الأبيرق قالها!

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، فقدمت قافلة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف فَعُدِيَ عليه من تحت البيت فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح؛ فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال يا ابن أخي، إنه قد عُدي علينا في ليلتنا

هذه، فنُقبت مشربتنا، وذُهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل (رجل منا له صلاح وإسلام)؛ فلما سمع لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها! فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها؛ فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له!

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقلت : يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا به، فقال رسول الله ﷺ : «أنظر في ذلك»، فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: (أسيد بن عروة)، فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ، ولا ثبت.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال ﷺ: عَمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت!! قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلِّم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتى عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ ، فقال: الله المستعان!

فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ (النساء).

فلما نزل القرآن، أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة.

قال قتادة: فلما أتيتُ عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عَسَا في الجاهلية. وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله. قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً.

قال أبوجعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، ولولا أن الله تفضّل عليك، يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدال عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾، يقول: لهمّت فرقة منهم، يعني: من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾، يقول: يزلّوك عن طريق الحق، وذلك لتلبيسهم أمر الخائن عليه ﷺ، وشهادتهم للخائن عنده بأنه بريء مما ادعى عليه، ومسألتهم إياه أن يعذره ويقوم بمعذرته في أصحابه، فقال الله تبارك وتعالى: وما يضل هؤلاء الذين همّوا بأن يضلوك عن الواجب عن الحكم في أمر هذا الخائن درع جاره، ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾.

وهذه الحادثة وغيرها إنما هو بيان لتشريع الله عز وجل وكيف يجب على من يأتي بعد النبي ﷺ أن يتصرف... بطلب البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر مع تذكير الجميع بوجوب تقوى الله والخوف منه، وتذكيرهم بالحساب والعذاب.

(وإما ينزغنك من الشيطان نزغ)

- (النزغ)، و(النغز)، لغتان بمعنى واحد، من الشيطان (أدنى وسوسة)، وهو (كالهمز)، وأصل (النزغ) الفساد، ومنه قول الله -تعالى-: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ (يوسف: ١٠٠)، وفي خطاب الله -سبحانه وتعالى- لرسوله الكريم ﷺ:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ (الأعراف)، وكذلك ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ (فصلت).

هذا إرشاد للأمة من خلال رسولنا ﷺ في علاج نزغ الشيطان بأنواعه.

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المقبرة لأداء صلاة العشاء، ثم نشهد جنازة والد أخ لنا وفي أشهر الصيف (٦-٧)، عندما تكون درجة الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل، وفي الشمس تتجاوز ذلك بكثير؛ يفضل الناس دفن موتاهم ليلاً، مع أن كثيراً من الناس كان يظن أن الدفن ليلاً لا يجوز!!!

كان صاحبي يتولى القيادة، وأنا أقرأ من مختصرات كتب التفسير.

- وماذا ورد في تفسير هاتين الآيتين؟

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ (الأعراف).

المعنىٰ إن ألقىٰ إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر بأن سوّل لك الأخذ بالمعاقبة، أو سوّل لك ترك أمرهم بالمعروف غضَباً عليهم، أو يأساً من

هداهم، فاستعذ بالله منه ليدفع عنك حرجه ويشرح صدرك لمحبة العمل بما أمرت به.

والاستعاذة مصدر طلب العوذ؛ فالسين والتاء فيها للطلب، و(العوذ) الالتجاء إلى شيء يدفع مكروها عن الملتجئ، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بالحرم، وأعاذه إذا منعه من الضر الذي عاذ من أجله.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم، فيقول له: من خلق كذا وكذا، حتى يقول له: من خلق ربك، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينتهِ**» (البخاري)، وفيه عن عبدالله قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان»، وفي حديث أبي هريرة: «ذلك صريح الإيمان».

والمعنى أن ما وجدوه من الخوف من الله -تعالى- أن يعاقَبوا على ما وقع في أنفسهم؛ فكأنه قال جَزَعُكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه، لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها.

كما في الصحيح؛ قالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «أَوَ قد وجدتموه»؟ قالوا: نعم، قال: (ذلك صريح الإيمان) رغماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر).

وفي آيات (فصلت):

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو

حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قرأ أهل البصرة (طيف)، وكذا أهل مكة، وقرأ أهل المدينة، والكوفة (طائف).

وقرأ سعيد ابن جبير طَيِّفٌ بالتشديد.

قال النحاس: ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب، أو يرى في النوم، وكذا معنى طائف.

وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان؛ فالأول: التخيل، والثاني: الشيطان نفسه.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، قال: الرجل يشتمه أخوه، فيقول: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن سليمان بن صرد، قال: استبّ رجلان عند النبي ﷺ فاشتد غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقال الرجل: أمجنون تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

ولما كان العبد لابد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غِرته وغفلته، ذكر -تعالى- علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان؛ فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب، تذكر من أي باب أُتيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله

عليه، وما عليه من لوازم الإيمان؛ فأبصر واستغفر الله -تعالى- واستدرك ما فرط فيه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك.

وفي حديث ابن مسعود عند الترمذي، قال النبي ﷺ: «**إن للشيطان لـمّة بابن آدم وللملك لـمَّة؛ فأما لـمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لـمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله؛ فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان**» (ضعّفه الألباني ثم صححه في المشكاة).

- وكيف يمكن أن نعرف آخر من استقر عليه العلامة الألباني في حكمه على الحديث؟

- مِنْ طلبة العلم مَنْ تتبع ما تراجع عنه الشيخ الألباني -رحمه الله- وجمع كل ذلك في (تراجعات الشيخ الألباني)، والمحدّث الشيخ الألباني اجتهد وتميز في عصرنا هذا، وتفرد بهذا (الفن)، ومع ذلك فهو بشر، يخطئ ويصيب، وصوابه لاشك أنه أكثر بكثير من خطئه؛ فما أصاب فيه أجر، وما أخطأ فيه عذر، ولكنه لاشك خدم سنة النبي ﷺ خدمة عظيمة جليلة حتى أصبحت أحكامه مرجعاً زمننا هذا -رحمه الله رحمة واسعة.

(فأما اليتيم فلا تقهر)!

– من القواعد الهامة التي تعلمتها أخيراً أن الأمر للرسول ﷺ يقصد به أمرُ الأمة جميعاً... وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمورٍ معلوم أن النبي ﷺ لا يفعلها ولا تقع منه..

– كلام جميل.. ولكن هل لك أن تطبق هذه القاعدة عملياً.. ما دمت قد تعلمتها حديثاً..

صاحبي «أنيس».. يحب أن يناقشني في قضايا شرعية.. يتعلم.. يتبين.. لكي يكون أقرب ما يمكن إلى كتاب الله وهدي رسول الله ﷺ .. لا يقرأ كثيراً... ولكنه يستمع كثيراً... ويناقش أكثر..

كنا في طريقنا لتناول الغداء بعد صلاة الجمعة... ونادراً ما أخرج للغداء يوم الجمعة.. لأنه يوم راحة بالنسبة لي وخاصة بعد الصلاة...

تابع «أنيس» حديثه...

– مثلاً.. قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾... هذه السورة أحب قراءتها وتكرارها... وأشعر أنها أمر مباشر لي... لذلك اطلعت على تفسيرها في أكثر من كتاب للتفسير...

– أمتِعنا بما وجدت في كتب التفسير...

فيه أربع مسائل: الأولى – قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ أي لا تسلَّط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يُتْمك، قاله الأخفش.

وقيل: القهر الغلبة. والكهر: الزجر. الثانية - ودلّت الآية على اللطف باليتيم، وبرّه والإحسان إليه.

وروي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فقال: «**إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**» (حسّنه الألباني) وفي الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين**». وأشار بالسبابة والوسطى. (البخاري).

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ أي لا تزجره، فهو نهيٌ عن إغلاظ القول. ولكن ردَّه ببذل يسير، أو ردٍّ جميل، واذكر فَقْرك، قاله قتادة وغيره.

وفي الحديث: «سألت ربي مسألة وودت أني لم أسأله، قلت: يا رب! كانت قبلي رسل منهم من سخرت له الرياح ومنهم من كان يحيي الموتى، وكلمت موسى. قال: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قال: فقلت بلى يا رب! (فوددت أن لم أسأله)» (الصحيحة).

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدُّث بنعم الله، والاعتراف بها شكر.

في الحديث: «**إذا آتاك الله مالاً فَلْيُر عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً ولا يحب البؤس ولا التباؤس**». (حسن)

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ مقابل لقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾. وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا

فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾. وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

وأصل الأمر الوجوب، فيعلم أن النبي ﷺ واجب عليه ما أُمر به، وأما مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها فيما فُرِضَ عليه ما لم يدلّ دليل على الخصوصية.

وعن عمرو بن ميمون: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به يقول له رزقني الله من الصلاة البارحة كذا وكذا، وعن عبدالله بن غالب: أنه كان إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، صليت كذا، ذكرت الله كذا، فقلنا له: يا أبا فراس إن مثلك لا يقول هذا، قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، وتقولون أنتم: لا تحدِّث بنعمة الله.

– كلام جميل... وقد قرأت ذات مرة أن بعض السلف كان يختم هذه السورة بالتكبير ويبدأ بسورة (الشرح) بعدها...

– نعم قرأت ذلك وإليك التفصيل...

عن عكرمة بن سليمان: قرأتُ على إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين، فلما بلغت والضحى، قال لي كبِّر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبدالله بن كثير فلما بلغت والضحى قال: كبِّر حتى تختم. وأخبره عبدالله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أُبَيّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبَيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

سورة الشرح: سُمِّيت في معظم التفاسير، وفي «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي» «سورة ألم نشرح»، وفي بعض التفاسير تسميتها «سورة الانشراح».

والشرح حقيقته: فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، والتشريح في الطب، ويطلق على انفعال النفس بالرضا بالحال المتلبِّس بها.

فجعل إزالة ما في النفس من حُزن مثل شرح اللحم وهذا الأنسب بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ (الشرح).

فسَّرها ابن عباس بأن الله شرح قلبه بالإسلام، وعن الحسن قال: شرح صدره أن ملأه علماً وحكماً، وقال سهل بن عبدالله التستري: شرح صدره بنور الرسالة.

وعلى هذا الوجه حمله كثير من المفسّرين ونسبه ابن عطية إلى الجمهور. ويجوز أن يجعل الشرح شرحاً بدنياً. روي عن ابن عباس أنه فسَّر به واختلاف الروايات حمل بعض أهل العلم على القول بأن شق صدره الشريف تكرر مرتين إلى أربع، منها حين كان عند حليمة. وفي حديث عبدالله بن أحمد بن حنبل أن الشقَّ كان وعُمْر النبي ﷺ عشر سنين.

والذي في «الصحيح» عن أبي ذرٍّ أنه كان عند المعراج به إلى السماء، واللام في قوله: «لك» لام التعليل، وهو يفيد تكريماً للنبي ﷺ بأن الله فعل ذلك لأجله.

والمعنى: أن الله أزال عنه كل ما كان يتحرّج منه من عادات أهل الجاهلية

التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه من الزكاة والسمو ولا يجد بداً من مسايرتهم عليه فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرسالة، وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي فيسّره الله عليه بقوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ (الأعلى).

(أنقض) جعل الشيء ذا نقيض، والنقيض صوت صرير المحمل والرحل وصوت عظام المفاصل، وفرقعة الأصابع.

والآية تشير إلى أحوال كان النبي ﷺ في حرج منها أو من شأنه أن يكون في حرج، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها أو هيأ نفسه لعدم النوء بها.

لما قابلوا إرشاده بالإعراض وملاطفته لهم بالامتعاض، حدث في صدره ضيق آخر أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ (الشعراء)، وذلك الذي لم يزل ينزل عليه في شأنه ربط جأشه بنحو قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، فكلما نزل عليه وحي من هذا أكسبه شرحاً لصدره.

وسياق الكلام وعدٌ للنبي ﷺ بأن يُيسّر الله له المصاعب كلما عرضت له، فاليسر لا يتخلّف عن اللحاق بتلك المصاعب، وذلك من خصائص كلمة (مع) الدالة على المصاحبة.

وكلمة (مع) هنا مستعملة في غير حقيقة معناها لأن العسر واليسر نقيضان، فمقارنتهما معاً مستحيلة، فتعيّن أن المعيّة مستعارة لقرب حصول

اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعية. وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق).

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه بلغه أن أبا عبيدة حُصِرَ بالشام وقد تألَّب عليه القوم فكتب إليه عمر: «سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبدٍ مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجاً، ولن يغلب عسرٌ يسرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ (آل عمران)، قال: فكتب إليه أبوعبيدة: «سلام عليك، أما بعد، فإن الله يقول في كتابه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ (الحديد)، إلى آخرها، قال: فخرج عمر بكتابه فقعد على المنبر فقرأ على أهل المدينة، ثم قال: يا أهل المدينة، إنما يُعرِّض بكم أبوعبيدة أن ارغبوا في الجهاد «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى)

- الآيات التي فيها عتاب من الله لرسوله ﷺ تبيّن مكانة رسول الله ﷺ عند الله عز وجل... تأتي رقيقة لطيفة تهيأ نفس النبي ﷺ أولاً.. لاستقبال العتاب.. وتأتي بأسلوب غير مباشر.. وتأتي مسبوقة بالعفو والمغفرة.. وتأتي بصيغة العموم مثل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾ (الأنفال).

استوقفني صاحبي..

- هذه الآية من سورة الأنفال، أليس المقصود منها (أسارى بدر)؟!

- بلى... ولو قرأنا تفسيرها لوجدنا أن فيها تربية للأمة أكثر مما فيها من عتاب ولَوْمٍ للنبي ﷺ ..

- هات يا أبا يوسف ملخص تفسير هذه الآية من حاسبوك..

كنت وصاحبي إبراهيم (أبو يوسف) وثالثنا خالد (أبو حمد).. في مكتبة المسجد.. بعد صلاة العشاء.. بانتظار رابعنا وائل (أبو المنذر) الذي كان ملتزماً بالصلاة إماماً في مسجد آخر.. لنخرج للعَشاء..

- إليك ما وجدت في كتب التفسير...

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾ (الأنفال).

ما كان لنبي أن يحتبس كافراً قَدَر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمنّ.

و «الأسر» في كلام العرب: الحبس، يقال منه: «مأسور»، يراد به: محبوس.

وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد ﷺ، يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم النبي ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسراً.

والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عَرَضَ الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، فالعتاب إنما كان متوجهاً بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية. هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره.

روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب، قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبوبكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا بن الخطاب»؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتُمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (قريباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر

وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ : «أبكي للذي عَرَضَ عليّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عُرِض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ). وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾ (الأنفال). فأحل الله الغنيمة لهم.

لم يُوحِ الله إلى النبي ﷺ بشيء في ذلك، وأن الله أوكل ذلك إلى اجتهاده فرأى أن يستشير الناس ثم رجّح أحد الرأيين باجتهاد، فإنهم قد أسلم منهم، حينئذ، سهيل بن بيضاء، وأسلم العباس وغيره، وقد خفي على النبي ﷺ شيء لم يعلمه إلا الله وهو إضمار بعضهم – بعد الرجوع إلى قومهم – أن يتأهبوا لقتال المسلمين من بعد.

فلأجل هذا جاء قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

والكلام موجّه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، وليس موجهاً للنبي ﷺ لأنه ما فعل إلا ما أمره الله به من مشاورة أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، لا سيما على ما رواه الترمذي من أن جبريل أتى النبي ﷺ أن يُخيِّر أصحابه، ويدلُّ لذلك قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء، وليس لرسول الله ﷺ في ذلك حظ.

فمعنى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ نفيُ اتخاذ الأسرى عن استحقاق نبي لذلك الكون.

وجيء بـ «نبي» نكرة إشارة إلى أن هذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل، وهو في الإصحاح عشرين من سفر التثنية.

ومثل هذا النفي في القرآن قد يجيء بمعنى النهي نحو ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥٣). وقد يجيء بمعنى أنه لا يصلح، كما هنا، لأن هذا الكلام جاء تمهيداً للعتاب فتعيَّن أن يكون مراداً منه ما لا يصلح من حيث الرأي والسياسة.

ومعنى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ هو بقاؤهم أرقَّاء أو بقاء أعواضهم وهو الفداء. وليس المراد أنه لا يصلح أن يقع في يد النبي أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل أحد نفيه عن النبي ﷺ، فتعيّن أن المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المنُّ عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المنَّ هنا، لأنه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض، فتعيّن أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أن ذلك الأجدر به حين ضَعْف المؤمنين، خضداً لشوكة أهل العتاد، وقد صار حكم هذه الآية تشريعاً للنبي ﷺ فيمن يأسرهم في غزواته.

والإثخان الشدة والغلظة في الأذى. يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح. وقد حمله بعض المفسرين في هذه الآية على معنى الشدة والقوة، فالمعنى: حتى يتمكن في الأرض، أي يتمكن سلطانه وأمره.

و ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ هو المال، وإنما سُمِّي عَرَضاً لأن الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشيء العارض، إذ العُرُوض مرور الشيء وعدم مكثه لأنه يعرِض للماشين بدون تهيؤ.

والمراد عَرَضُ الدنيا المحض وهو أخذ المال لمجرد التمتع به.

والإرادة هنا بمعنى المحبة، أي تحبون منافع الدنيا والله يحب ثواب الآخرة، أي يحب لكم ثواب الآخرة، لأنه نفعٌ خالدٌ، ولأنه أثر الأعمال النافعة للدين الحق، وصلاح الفرد والجماعة.

فكل عَرَضٍ من أعراض الدنيا ليس فيه حظ من نفع الآخرة، فهو غير محبوب لله تعالى، وكل عرض من الدنيا فيه نفع من الآخرة ففيه محبة من الله تعالى.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾، تفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

(العزيز) يدلُّ على الاستغناء على الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة، وهذا يوميء إلى أن أولياءه ينبغي لهم أن يكونوا أعزاء كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨). فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بأنفسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها.

ووصف الحكيم يقتضي أنه العالم بالمنافع الحق على ما هي عليه، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء.

(عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم!)

كلما تدبرنا هذه الآيات التي فيها عتاب من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ ازددنا يقيناً بمنزلة الرسول ﷺ عند الله... منزلة لم يبلغها نبي غيره... ويأتي العتاب دائماً ليّناً لطيفاً... متماشياً مع هذه المنزلة لرسولنا ﷺ ... وفي هذه الآية مثال جميل.. يقول تعالى في سورة التوبة (وتُسمّى الفاضحة لما تضمنته من بيان أحوال المنافقين)... ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة).

- كلمات هذه الآية رقيقة جميلة لطيفة لا يحتاج أن يطلع أحدنا على كتب التفسير لمعرفة مدى مراعاة الله لنبيّه في عتابه على (ترك الأولى).. ولكن دعنا نقرأ ما ورد في تفسير هذه الآية...

صاحبي .. هيّن.. ليّن.. لا حدة في نقاشه.. ولا شدة في كلامه.. عرفته منذ أكثر من عشرين سنة.. ولم أره مرة يرفع صوته.. أو يشتد على أحد.. حتى على من يسيء إليه!! ينسحب بهدوء إذا تعالت الأصوات.. ويتعامل بعد ذلك مع الجميع كأنّ شيئاً لم يحصل!!!

- هات ما عندك من كتب التفسير...

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾، قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزَّك ورحمك! كان كذا وكذا. وعلى هذا التأويل يحسُنُ الوقف على قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾.

هذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به النبي ﷺ في إِذنه لمن استأذنه في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم.

يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم.

والمعنى: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ (التوبة: ٤٢)، حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم.

عن قتادة قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ الآية، عاتبه، ثم أنزل الله تعالى في سورة النور، فرخّص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ (النور)، فجعله الله رخصة في ذلك من ذلك.

وأخبره بالعفو قبل الذنب لِئَلاّ يطير قلبه فَرَقاً.

قيل: في الإذن قولان: (الأول): ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة. (الثانية): ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في القعود لما اعتلوا بأعذار، وهذا عتاب تلطُّف إذ قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. وكان عليه السلام أَذِنَ من غير وحي نزل فيه. قال قتادة وعمرو بن ميمون: ثنتان فَعَلَهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحي وأخذه من الأسارى الفدية فعاتبه الله.

قال بعض العلماء: إنما بَدَرَ منه ترك الأولى فقدّم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾، أي ليتبين لك من صدق ممن نافق. قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن يومئذ يعرف المنافقين وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة. وقال مجاهد: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يأذن لنا جلسنا.

الاستفهام في ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الإذن لمن استأذنه في القعود، قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عُذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه.

وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه، وقيل: إن هذا عتاب له صلى الله ﷺ في إذنه للمنافقين بالخروج معه، لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج، والأول أولى.

- أحسنت... من أي كتاب في التفسير قرأت...

- لقد انتقلت بين الطبري والقرطبي وابن عاشور.. والثالث يعجبني لأسلوبه اللغوي وربطه بين الآيات وتعمقه في الوصول إلى المعنى... مع أنني ألاحظ أحياناً جملاً لا تتفق ومنهج السلف في الأسماء والصفات... ولكنها معروفة وقليلة.

(عبسى وتولى)

لا يمكن لباحث في أسلوب عتاب الله لرسوله ﷺ ألا يتطرق إلى هذه الآية من سورة (عبس).. وتسمّى سورة (السَفَرة)، لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾، وهي مكية نزلت بعد سورة (النجم)، وقبل سورة (القدر).. وترتيب نزولها الرابعة والعشرون، وترتيبها في المصحف (الثمانون)...

– معلومات جيدة عن السورة وخاصة اسمها الثاني (السَّفَرة) أول مرة أسمعه...

صاحبي بدأ يرتاد مراكز (الأترجة) لتحفيظ القرآن الكريم.. رغم أنه جاوز الخمسين.. وتقاعد عن العمل.. إلا أنه قرر أن يبدأ بحفظ القرآن كاملاً... (عمل ينفعه بعد الموت).. كنا في طريقنا لأداء العمرة براً... وثالثنا في المقعد الخلفي.. تكفّل بتقديم الأشربة والأطعمة خلال الرحلة...

– دعني أقرأ لكما شيئاً مما ورد في تفسير هذه الآيات التي نحفظها جميعاً...

كان صاحبي هو الذي يتولى القيادة... أخذت أبحث في هاتفي أجمع من تفاسير مختلفة...

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي كلح بوجهه، والعبوس بضم العين: تقطيب الوجه وإظهار الغضب. ويقال: رجل عبوس بفتح العين، أي متقطب، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (الإنسان).

﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾﴾ أي أعرض بوجهه لأن جاءه الأعمى.

افتتاح هذه السورة بفعلين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبيّن إبهامها قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ (عبس).

روى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبدالله بن أم مكتوم، فكرِهَ رسول الله ﷺ أن يقطع عبدُالله عليه كلامه، فأعرَض عنه.

وفي الترمذي عن عائشة، قالت: نزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل، يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويُقبلُ على الآخر، ويقول: (أترى بما أقول بأساً) فيقول: لا، ففي هذا نزلت، الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبدالله بن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، واسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين.

وعُبِّر عن ابن أم مكتوم بالأعمى ترقيقاً للنبي ﷺ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضرارة فهو أجدر بالعناية به، لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره.

ولما كان صدور ذلك من الله لنبيه ﷺ لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجّهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يتقرب المعنيَّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب،

وهذا تلطف من الله برسوله ﷺ ليقع العتاب في نفسه مدرجاً، وذلك أهون وقعاً، ونظير هذا قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة).

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ اكتفاء عن أن يقول: فينفعه التزكّي وتنفعه الذكرى لظهور أن كليهما نفع له.

والذكرى: هو القرآن لأنه يذكّر الناس بما يغفلون عنه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (القلم)، فقد كان فيما سأل عنه ابن أم مكتوم آيات من القرآن.

قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي». ويقول: «هل من حاجة»؟، وكان النبي ﷺ يُحبُّه ويُكرمه، وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات مرتين، وكان مؤذن النبي ﷺ هو وبلال بن رباح.

قال ابن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم وأعرض عنه، لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفَّه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبى إلا أن يُكلِّم النبي ﷺ حتى يُعلِّمه، فكان في هذا نوع جفاء منه. ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له ولم يقل: (عبست وتوليت). ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ أي يعلمك لعلّه يعني ابن أم مكتوم ويزكّي بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه.

نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الأنعام: ٥٢)، وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٢٨).

وقوله: (كلا) ردعٌ له ﷺ عما عوتب عليه، أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغنيِّ والتشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكّي والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به إنها تذكرة أي: أن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك فمن شاء ذكره أي: فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره.

(واستغفر لذنبك)

- كثير من الناس ينزعج من قولك «هداك الله».. ظناً منه أنك ترى أنه على غير هدى وتدعو له بالهداية...

قاطعني:

- وهذا ما حصل معي في إحدى اجتماعاتنا الأسرية، قلتها لابن عم لي، فرد علي غاضباً، هل تراني أشرب خمراً حتى تقول لي: «هداك الله»؟

- وماذا كان موقعك؟!

كنت وصاحبي في طريقنا إلى أحد المخيمات الربيعية التي أقامها مجموعة من الشباب في المنطقة الشمالية من الكويت... وعادة تقام هذه المخيمات لثلاثة أو أربعة أشهر ابتداء من نوفمبر...

- اعتذرت له.. وانتهزتها فرصة لأبيّن تفسير بعض الآيات التي قد تلتبس على العامة.. قلت له.. (لقد خاطب الله رسوله ﷺ وهو أتقى الخلق لله وأعلم الخلق بالله.. فقال له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ (الأحزاب)... فهذا ليس معناه أن الرسول ﷺ لم يكن يتقي الله.. وقال له سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ (محمد)... وأخذت أقرأ لهم في تفسير هذه الآية.

- وماذا وجدت؟

- هذا الأمر من الله عز وجل لنبيه أتى في آيتين من كتاب الله.. الأولى

في سورة غافر: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ (غافر).

والثانية في سورة محمد: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ (محمد).

وفي تفسير الآيتين ورد ما يلي:

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ قيل: لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: لذنب نفسك على من يجوِّز الصغائر على الأنبياء. ومنهم من قال: هذا تعبُّد للنبي ﷺ بدعاء.

وقيل: هو مجرد تعبُّد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾، أي: دم على تنزيه الله متلبساً بحمده.

والأمر بالاستغفار أمر بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوءة، وفيه تعريض بأن أمته مطلوبون بذلك.

وأيضاً فالنبي ﷺ مأمور بالاستغفار تعبُّداً وتأدُّباً. وأُمِر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي الأوقات كلها فاقتصر على طرفي أوقات العمل.

وقد أخبر الله نبيه ﷺ بأنه قد غَفَرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كما في أول سورة الفتح، فتعيّن أن أمره بالاستغفار في سورة غافر قبل أن يُخبره بذلك، لطلب دوام المغفرة، وكان أمره به في سورة النصر بعد أن أخبره بغفران ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، للإرشاد إلى شكر نعمة النصر، وقد قال

بعض الصحابة للنبي ﷺ في شأن عبادته: إن الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» (البخاري). وكان يكثر أن يقول في سجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي». بعد نزول سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ (النصر)، قالت عائشة رضي الله عنها يتأوَّل القرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، قال الماوردي: وفيه – وإن كان الرسول عالماً بالله – ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني – ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً. الثالث – يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

أمر الله رسوله ﷺ بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم لأن في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمته.

فالأمر في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه، لأن النبي ﷺ قد علم ذلك وعَلِمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس لأن العلم لا يحتمل النقيض فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله، بل لطلب

الثبات فهو على نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٦)، وأما الأمر في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبي ﷺ من قبل وعمله أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما - يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. الثاني - استغفر الله ليعصمك من الذنوب.

وقيل: لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان، أي أثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار.

وقيل: الخطاب له والمراد به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين.

وقيل: أُمِر بالاستغفار لتقتدي به الأمة. ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ أي ولذنوبهم. وهذا أمر بالشفاعة. روى مسلم عن عاصم الأحول عن عبدالله بن سرجس، قال: أتيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال ثريداً، قال فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ (محمد: ١٩)، قال: ثم درت خلفه «فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه. عند ناغض كتفه اليسرى. جمعاً عليه خيلان كأمثال الثآليل». جمعاً (يريد مثل جمع الكف، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها). عليه خيلان كأنه الثآليل. (جمع خال، وهو الشامة في الجسد. والثآليل: وهو جمع ثآلول، وهي حبيبات تعلو الجسد).

وعن أبي هريرة في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، قال رسول الله ﷺ : «**إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**» (السلسلة الصحيحة).

وما يستغفر منه النبي ﷺ ليس من السيئات... لعصمته منها، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية إما محاكاة لما كان يكثر النبي ﷺ أن يقوله: «**اللهم اغفر لي خطيئتي**» وإنما كان يقوله في مقام التواضع، وإما إطلاق لإسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه النبي ﷺ في قوله: «**إنه ليُغان على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة**» (مسلم).

(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)

- لا شك أن الله - سبحانه وتعالى - أكرم خاتم أنبيائه وميزه في كتابه، وأعلى شأنه، ورفع ذكره بحيث لا يستطيع حاقد ولا مبغض ولا متعصب أن ينكر ذلك؛ لأنه جاء صريحاً محكماً في كتاب -حفظه الله - إلى يوم القيامة.

- وهل ينكر ذلك أحد؟!

- نعم، بعض جهلة المسلمين الذين يستمعون ويتابعون بعض وسائل التواصل الاجتماعي وبعض القنوات التي تحاول بث الشبهات حول النبي ﷺ، والرد على هؤلاء سهل ويسير، يستطيع أي أحد أن يثبت بطلان زعمهم.

كنت وصاحبي في زيارة قصيرة إلى مصر، لزيارة أحد الأصدقاء القدامى، بلغنا أنه مرض واضطر لإجراء عملية، تبعد قريته ساعة ونص من مقر سكننا.

- هؤلاء الذين يحاولون أن ينالوا من مكانة النبي ﷺ وأخلاقه ودعوته وتعاملاته، نقول لهم، كان في زمن النبي ﷺ من كان أكثر عداوة منكم للنبي ﷺ، وكان أشد حرصا على النيل منه، والحط من قدره، والطعن في رسالته، ومع ذلك لم ينالوا من غايتهم شيئا، ثم أثبت الله علوّ مكانته وحسن خلقه وكمال دعوته في آيات لا يستطيع أحد أن يحرّفها إلى يوم القيامة، فلا تتعبوا أنفسكم بالخوض في هذا الأمر.

- هات بعض ما ذكره الله في بيان مكانة النبي ﷺ.

كان قائد المركبة مصغيا لحديثنا، ولم يخف استمتاعه بما يسمع، مبتسماً أحياناً، مصلياً على الرسول ﷺ أحياناً أخرى، مهللاً تارة.

- بادئ ذي بدء، أكرمه الله حين خاطبه بألقابه وصفاته وليس باسمه المجرد، مع أن الأنبياء جميعهم خاطبهم الله بأسمائهم، عدا محمد ﷺ؛ فإنه لم يقل ولا مرة واحدة في كتابه (يا محمد)! قال -سبحانه-: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦)، وقال -سبحانه-: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (هود:٧٦)، وقال -سبحانه-: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (طه)، وقال -سبحانه-: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ (آل عمران:٥٥)، وهؤلاء هم خيرة الأنبياء وأولو العزم من الرسل، أما الرسول محمد ﷺ فقد كان الخطاب له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وتكرر هذا النداء ثلاث عشرة مرة في كتاب الله، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ مرتين في كتاب الله، ولم يخاطبه بـ(يا محمد).

- كلام جميل، وماذا بعد؟.

- وصف الله -سبحانه- رسول الله ﷺ بأكمل الأوصاف وأجمل النعوت، فقد زكاه في كل شيء.

زكاه في عقله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾، وفي منطقه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾، وفي خُلُقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾، وفي مصدر تعلمه ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، وتكفل برفع ذكره وإبقائه إلى يوم القيامة عالياً ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

- وقبل الرسالة؟

- لقد كان الرسول ﷺ في أشرف نسب، بشهادة أعدائه، وحديث أبي سفيان مع هرقل، عندما استلم هرقل رسالة من الرسول ﷺ في فترة الهدنة بينه وبين قريش بعد صلح الحديبية، كان في رسالته ﷺ : «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام أسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران).

فاستدعى هرقل من كان في بلده من تجار العرب، وكان أبو سفيان هناك فسأله: «كيف نسبه فيكم؟»، قال أبو سفيان: «هو فينا ذو نسب»، وفي الحديث عن وائلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**» مسلم.

ويعلم الجميع أن الرسول ﷺ مكث في قومه أربعين سنة قبل البعثة، وشهد له الجميع بالصدق والأمانة، فهو ذو خلق قبل الرسالة، وكملت أخلاقه ببعثته ودعوته للتوحيد، ﷺ وأكرمه الله -سبحانه- بأن أقسم بحياته، بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر)، قال الإمام القرطبي قال القاضي أبو بكر بن العربي: «قال المفسرون جميعهم أقسم الله -تعالى- ها هنا بحياة النبي ﷺ تشريفا له أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون».

هنا تدخل (محمود).

- يعني ممكن نحلف (بالنبي)؟ «أنا كنت أقول كده من زمان».

- كلا يا (محمود)... أنت تحلف بالله فقط وأسمائه وصفاته أما الله سبحانه فيقسم بما شاء من خلقه، فلا يجوز لك أن تحلف بالنبي.

أصيب صاحبنا بخيبة أمل!

- واختصه الله -سبحانه- بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ (الفتح).

وهنا سأل (محمود) مرة ثانية.

- وهل للنبي ﷺ ذنب حتى يغفره الله -عز وجل؟

اسمع ما ورد في تفسير هذه الآية:

روى محمد بن إسحق عن الزهري عن عروة بن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها، وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر، نزرتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك، فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي،

فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لقد أُنزلت علي سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس -ثم قرأ- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾، لفظ البخاري، وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ (الأحقاف:٩)، قالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به؟! فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

كأنه قال: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة، فيجمع الله لك به ما تقر به عينك في الدنيا والآخرة.

فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يُجْعَل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عَدَّد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قال: يَسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل.

ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقيل: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها قاله مجاهد وسفيان الثوري.

ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنباً في حق غيره ويُتم نعمته عليك بإظهار دينك على الدين كله، وقيل: بالجنة، وقيل: بالنبوة والحكمة، وقيل: بفتح مكة والطائف وخيبر، والأولى أن يكون المعنى ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة

بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام، ومعنى «يهديك»: يثبتك على الهداية إلى أن يقبضك إليه، وينصرك الله نصراً عزيزاً أي: غالباً منيعاً لا يتبعه ذل. هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين أي: السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم أي: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضماً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل.

(ليس لك من الأمر شيء)

- من أعظم، بل أعظم ركن في الإسلام وجميع الرسالات قبله.. توحيد الله -عز وجل-، إفراده -سبحانه- فيما اختص به، لهذا خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ولا مجاملات ولا تنازل ولا أنصاف حلول في هذا الباب، توحيد الله -سبحانه وتعالى.

- هل لك أن تبين لنا جانباً من هذا الباب العظيم؟

كان ديوان الثلاثاء في منزل أبي عبدالرحمن بعد صلاة العشاء، والحضور بين طلبة الجامعة ومتقاعدين، مدير الجلسة (عبدالرحمن) ابن صاحب الديوان -طالب في السنة النهائية بكلية الحقوق.

- هناك قضايا اختص بها الله -عز وجل- فلا ينبغي أن تصرف لغيره، هو -سبحانه- الذي يجيب الدعاء، فلا ينبغي أن يصرف الدعاء لغيره، وهو -سبحانه- الذي يملك المغفرة والرحمة، فلا ينبغي أن يُطلب غيره، وهو -سبحانه- الذي يملك الهداية بمعنى التوفيق لقبول الحق والعمل به، فلا تكون لغيره، ولا حتى لخير خلقه محمد ﷺ، ونذكر هنا بعض الآيات من كتاب الله -عز وجل:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ (آل عمران).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص).

نبه الله -تعالى- نبيه إلى أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلّا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء، ويعجل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء.

ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله -تعالى-؟!**»، فأنزل الله -تعالى-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيسلم وقد آمن كثير منهم: أبوسفيان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

وبعد ذلك قال ﷺ: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» وفي قوله: (**والله غفور رحيم**): إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة.

وفي تفسير الآية من سورة القصص: في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب: «**قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة**»، قال: لولا أن تُعيّرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، قال القرطبي: الهدى هديان: هُدى دلالة وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله -تعالى-: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ (الرعد)، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ (الشورى)، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد -سبحانه- بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وفي قوله وهو أعلم بالمهتدين إيماء إلى ذلك، أي هو أعلم من كل أحد بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والإنتفاع بما يلقى إليها من الدعوة ودلائلها.

والآيات في هذا المعنى كثيرة مثل قوله -تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ (يونس).

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾ (النحل). فالهدى المنفي عنه في آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، هو الهدى الخاص، الذي هو التفضل بالتوفيق؛ لأن ذلك

بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ (المائدة:٤١).

وهكذا نجمع بين الآيات جميعها مثل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ (فصلت).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ (الشورى).

هذا بعض ما تيسر لهذه الخاطرة القصيرة، أسأل الله القبول.

أنهى عبدالرحمن المجلس العلمي بكلمات جميلة.

- هذا الجانب من التوحيد أخطأ فيه كثير من المسلمين، منهم من أطرى الرسول ﷺ، فنسب إليهم بعض ما اختص الله به من قضايا كونية وقضايا إلهية. فتوجه هؤلاء المغالون إلى النبي ﷺ يدعونه، ويستغيثون به، ويسألونه ما لا يملك! ومنهم من نسب هذه الأمور إلى بعض الأولياء والصالحين، وبعضهم نسبها إلى أشخاص لا حظّ لهم في الدين، وجَهل هؤلاء أن هذا الأمر شرك أكبر يخرج العبد من ملة الإسلام، وإن كان يصلي ويصوم، نسأل الله الهداية والتوفيق والثبات لنا ولأمة محمد ﷺ.

(إنك لا تهدي من أحببت)

– إن الله تبارك وتعالى لا يحابي أحداً... ولا يظلم مثقال ذرة.. هناك أمور اختص الله بها ولا يرضى أن يُشرَك أحدٌ معه سبحانه وتعالى.. تفرّد سبحانه بأسمائه وصفاته... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى).. وتفرّد عز وجل بالمغفرة والرحمة والهداية والشفاعة والجنة والنار.. فلا يملك مخلوق شيئاً من ذلك... وجعل سبحانه الحياة والموت والرزق والنفع والضر... بيده فلا يملكها غيره... وذلك كله ليفُرده الخلقُ بالعبادة ولا يشركوا معه أحداً أبداً.. لا في رجاء نفع.. ولا في دفع ضُرّ.. ولا في طمع بالجنة ولا خوفٍ من النار.. ولا في طلب رزق.. ولا في رجاء شفاعة... الله وحده هو الذي يُدعىٰ في ذلك كله.

كانت هذه مقدمة لخاطرة ألقاها أحد خطباء وزارة الأوقاف أدى صلاة المغرب في مسجدنا... ولم تزد كلمته عن عشر دقائق...

بعدها خرجت وصاحبي من المسجد، نمشي رياضة بانتظار صلاة العشاء.

– أعجبني الشيخ.. وتركيزه على ضرورة توحيد الله في قضايا الدنيا كالرزق والعافية... وفي قضايا الدين كالهداية والمغفرة... وفي قضايا الآخرة كالرحمة والجنة والشفاعة..

– نعم.. جزاه الله خيراً وفق في طرحه وخاصة في موضوع الهداية.. وكيف أن الله نفى الهداية عن رسول الله ﷺ .. وهو الذي بعثه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب).

دعني أقرأ لك ما ورد في التفسير لهاتين الآيتين:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص).

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ (البقرة).

الهُدى هُدَيان: هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ (الرعد)، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى)، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)، فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ﴾ (فاطر: ٨)، والهدى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت. قال أبو المعالي: وقد ترِدُ الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ (محمد)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ (الصافات)، معناه: فاسلكوهم إليها.

قالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال: «نعم دفع عنه بذاك

الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جُب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار (في رجليه) يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً» (متفق عليه).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أجمع جلُّ المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، وهو نص حديث البخاري ومسلم، وقال أبو روق قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، إشارة إلى العباس. وقاله قتادة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، قال مجاهد: لمن قُدِّر له أن يهتدي. وقيل: معنى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي من أحببت أن يهتدي. وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبي ﷺ إلا أبا بكر الصديق، فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

- ولكن الآية الثانية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة)، جاءت بعد آيات الصدقة، فما العلاقة.. وكيف الربط بينها؟!!

- أحسنت.. هذه النقطة شرحها القرطبي وغيره في التفسير.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكأنه بيَّن فيه جواز الصدقة على المشركين. وروى ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قربات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب أولئك.

وحكى الطبري أن مقصد النبي ﷺ بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين. فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ (البقرة).

أتى قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾ (البقرة: ٢٧١)، وبين قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾، ومناسبته هنا أن الآيات المتقدمة يلوح من خلالها أصناف من الناس: منهم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومنهم الذين يبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى، ومنهم الذين يتيمّمون الخبيث منه ينفقون، ومنهم من يعدهم الشيطان الفقر ويأمرهم بالفحشاء، وكأن وجود هذه الفِرق مما يثقل على النبي ﷺ ، فعقَّب الله ذلك بتسكين نفس رسوله والتهوين عليه بأن ليس عليه هداهم، ولكن عليه البلاغ. فالهدى هنا بمعنى الإلجاء لحصول الهدى في قلوبهم، الهدى ليس بواجب على الرسول ﷺ ، فلا يحزن على عدم حصول هداهم لأنه أدى واجب التبليغ، أو المعنى ليس ذلك بواجب عليكم أيها المعالجون لإسلامهم بالحرمان من الإنفاق حتى تسعوا إلى هداهم بطرق الإلجاء.

(فاعبد الله مخلصاً له الدين)

من القواعد التي اتفق عليها أهل العلم أن أوامر الله لرسوله ﷺ إنما يُراد بها أمته من بعده... مثل أمره بالتقوى والإخلاص والاستمرار بالطاعات وعدم مداهنة الكافرين وعدم الركون للظالمين وعدم السعي لإرضاء اليهود والنصارى وغير ذلك مما ورد في كتاب الله.. وما اختص به ﷺ يجب التدليل عليه.

- وما أمثلة ما اختص به رسول الله ﷺ من أوامر؟...

- مثلاً... حُرمت عليه وعلى آل بيته الصدقة، وأنه إذا لبس للحرب حرم عليه أن ينزع وحرم عليه تعلم الشعر والكتابة وأن يتزوج أحد من نسائه بعد موته وكان قيام الليل واجباً عليه - على أحد الأقوال - وله أن يواصل في الصيام... وبالطبع ما أباحه الله له من الزيادة على أربع زوجات...

كنا في طريقنا إلى المقبرة لأداء صلاة العصر هناك في المسجد ثم اتباع ما كان من جنائز والصلاة عليها وزيارة القبور للاعتبار... اعتدت وصاحبي أن نفعل ذلك بين فترة وأخرى...

- في بداية سورة الزمر أمرٌ من الله لرسوله ﷺ بعبادة الله بإخلاص... كلما تذكرت هذه الآيات.. تحسرت على حالنا في (الإخلاص)... وعرفت ضعف حالنا مقارنة بالصحابة في هذه القضية...

- صدقت يا أبا أحمد...

- يقول تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (الزمر).

وفي تفسير هذه الآيات ورد:

أن عقبة بن مسلم دخل مسجد المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدِّث الناس فلما سكَتَ وخلا قلت له: أُنشدك بحقّي لما حدّثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته فقال أبو هريرة: أفعل لأحدِّثنَّك حديثاً حدَّثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكث قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى فمكث كذلك ثم أفاق فمسح عن وجهه فقال: أفعل لأحدثنّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره ثم نشغ نشغة شديدة ثم مال خارّاً على وجهه واشتد به طويلاً ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ : «أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ﷺ ؟ قال: بلى يا رب،

قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله تبارك وتعالى له: كذبت وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان قارئ فقد قيل ذاك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصلُ الرحم وأتصدق؟ فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة له: كذبت، ويقول الله: بل إنما أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذاك.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: في ماذا قُتِلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت... فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذاك» ثم ضرب رسول الله ﷺ ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعَّر بهم النار يوم القيامة» (صححه الألباني).

وعن العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية قال: فدخل عليه رجل فحدّثه بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء مثل هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (هود) صحيح.

وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب، لأن

الإخـلاص من الأمـور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية، كما في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**» (البخاري)، وجملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٣)، مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالأخلاص، أي: إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله، وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص الذي أمر به، قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن (**لا إله إلا الله**)، واللام في ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق، أي لا يحق الدين الخالص، أي الطاعة غير المشوبة إلا له على نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة).

فأفاد قوله: لله الدين الخالص، أنه مستحقه وأنه مختص به.

والإخلاص في العبادة أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهيَّ إرضاء الله تعالى، وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحظُّ الدنيوي هو الباعث على العبادة مثل أن يعبد الله ليمدحه الناس بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة.

ولذا قيل: الرياء الشرك الأصغر، أي إذا كان هو الباعث على العمل، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة، فلو أيس منها ترك القتال، فأما إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة.

إن القصد من العبادة التقرب إلى الله فإن سأله ما فيه صلاحه في الدنيا

أيضاً لا ضير فيه، لأن تلك العبادة جعلت وسيلة للدعاء ونحوه وكل ذلك تقرُّب إلى الله تعالى وقد شُرعت صلوات لكشف الضر وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة، ومن المغتفر أيضاً أن يقصد العامل من عمله أن يدعو له المسلمون ويذكروه بخير. وفي هذا المعنى قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه حين خروجه إلى غزوة مؤتة ودعا له المسلمون حين ودَّعوه ولمن معه بأن يردّهم الله سالمين:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرع يقذف الزبدا

أو طعنة من يدي حرّان مجهزة

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على حدثي

أرشدك الله من غاز وقد رشدا

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة: ٥).

وقال جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (الزمر).

(عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)

– عقيدتنا التي نؤمن بها دون ريب هي أن رسول الله ﷺ هو أتقى الخلق لله وأعلم الخلق بالله وأكرم الخلق على الله.. وأن الله عز وجل اصطفاه.. لأعظم رسالة وأنزل إليه أشرف كتاب.. وأرسله بأكمل دين... وقد أدى الرسول ﷺ ما أمر به كاملاً.. وبلَّغ ما كلف به تاماً.. وكل ما قد يخطر على بال أحد خلاف ذلك فإنه خطأ وسوء فهم..

كنت وصاحبي في مجلس علمي بعد صلاة العشاء.. بدأ المحاضر كلامه بهذه التوطئة.. تابع حديثه..

– ولقد أكرم الله عز وجل نبيه ﷺ في الدنيا والآخرة.. وبيّن ذلك في كتابه.. بآيات تتلى إلى يوم القيامة.. منها قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾، ومنا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.. ومنها في سورة الإسراء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء)... وهذه الآية موضوع حديثنا الليلة...

بعد الانتهاء من المحاضرة التي استغرقت أربعين دقيقة تقريباً غادرت وصاحبي المجلس ولم ننتظر العشاء على أن نتوقف عند «محل الفول» الذي اعتدنا عليه لنأخذ عشاء خفيفاً...

– أعجبني طرح الشيخ للموضوع وخاصة تفصيل التفسير الذي أسمعه لأول مرة...

– نعم.. لقد وفقه الله... في محاضرته لنستذكر شيئاً منها تثبيتاً لما سمعناه... بداية النقاط التي ذكرها.

في هذه الآية مسائل: الأولى قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ «من» للتبعيض. والفاء في قوله ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾، أي قم فتهجد. (به) أي بالقرآن. والتهجد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر، فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم. لأن المتهجد هو الذي يلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ (الواقعة)، معناه تندمون، أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها.

الثانية: الخطاب للنبي ﷺ ولأنه مغفور له فهو إذا تطوّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات، وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾، اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال: الأول – وهو أصحها – الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله حذيفة بن اليمان. وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله فيأتون موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتي فأقول أنا لها**».

القول الثاني: إن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة. وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ : «**أنا سيد ولد آدم**

يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» (الصحيحة).

القول الثالث: ما حكاه الطبري عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالى محمد ﷺ معه على كرسيه، وفيه بُعد.

القول الرابع: إخراجه من النار بشفاعته من يخرج، قاله جابر بن عبدالله.

الرابعة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما: أن الباري تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني: أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطي الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلُّهم فيه درجة محمد ﷺ، فإنه يُعطى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد. و«عسى» من الله عز وجل واجبة.

ومن إكرام الله لرسوله أيضاً يوم القيامة مقام الوسيلة، وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد، كما في الحديث: «**إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ وسلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو**» (مسلم).

وهي له دون شك، ولكن لا يجزم بذلك النبي ﷺ تأدباً مع الله عز وجل، وكذلك من إكرام الله لرسوله ﷺ يوم القيامة أن يكون أول من يدخل الجنة كما في الحديث: عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «**آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك**

أمرت ألا أفتح لأحد قبلك». (مسلم) وفي الحديث أيضاً **«حتى يأذن الله عز وجل، لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يصدع بين خلقه نادى منادٍ: أين أحمد وأمته؟ فنحن الآخرون الأولون، نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، فتفرج لنا الأمم عن طريقنا، فنمضي غُراً محجّلين من أثر الطهور، فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها، فآتي باب الجنة، فآخذ بحلقة الباب، فأقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيُفتح لي، فآتي ربي عز وجل على كرسيه - أو سريره شك حمّاد - فأخِرُّ له ساجداً، فأحمدُهُ بمحامد لم يحمده بها أحدٌ كان قبلي، وليس يحمده بها أحد بعدي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل تُسمع، واشفع تشفّع، فأرفع رأسي فأقول: أي رب، أمتي أمتي، فيقول: أخرج من كان في قلبه مثال كذا وكذا - لم يحفظ حمّاد، ثم أعود فأسجد فأقول: ما قلت: فيقال: ارفع رأسك، وقل تُسمع، فأقول: أي رب أمتي، أمتي، فيقول: أخرج من كان في قلبه مثقال كذا وكذا، دون ذلك»**.

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك)

– بعض الآيات أشعر أنها «شديدة» على رسول الله ﷺ .. مع عقيدتي أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلم الخلق بالله وأتقى الخلق لله عز جل.

– لا أظن أنني أفهم معنى قولك أن بعض الآيات «شديدة» على رسول الله ﷺ .

– أقصد أن ظاهر الآية فيها إنذار أو تحذير شديد للرسول ﷺ .. وكلماتها لا «مجاملة» فيها...

– الله سبحانه وتعالى لا يجامل أحداً على الإطلاق وجميع الخلق عبيد لله.. والآيات التي فيها إنذار للنبي ﷺ إنما هي عبرة لغيره.. فيقول العبد إذا كان هذا هو الحال مع أكرم الخلق... فكيف بمن دونه؟!

قاطعني:

– دعني أذكر لك بعض هذه الآيات التي في هذا السياق... قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (الإسراء)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ (الإسراء).

– هذه الآيات من سورة الإسراء (٧٤ – ٧٥)، و(٨٦ – ٨٧)، وأظننا تحدثنا سابقاً عن الآيتين الأوليين... لنتدبر الآيتين (٨٦ – ٨٧).

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾

قوله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، فإنه جل ثناؤه لم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه، فلم يذهب به والحمد لله، بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه. وقد قال الله تعالى ذكره: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ (الأعلى)، فأخبر أنه ينسي نبيه منه ما شاء. فالذي ذهب منه الذي استثناه الله.

يقول عز وجل: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ولكنه لا يشاء ذلك، رحمة من ربك وتفضلاً منه عليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تحصى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن. أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتصل هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء)، أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾، أي ناصراً يردُّه عليك. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك، ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾، إذ جعلك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود، وهذا الكتاب العزيز.

هذا متصل بقوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ (الإسراء)، الآية أفضت إليه المناسبة فإنه لما تضمن قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء)، وتضمن أن الأمة أوتيت علماً ومنعت علماً، وأن علم النبوءة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعاً لغرور النفس، لأن العلم بالأشياء يكسبها إعجاباً بتميزها عمن دونها فيه، فأوقظت إلى أن مانح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبي ﷺ لأن علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعاً لمشيئة الله فما الظن بعلم غيره، تعريضاً لبقية العلماء. فالكلام صريحه تحذير، وهو كناية عن الامتنان كما دل عليه قوله بعده ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ وتعريض بتحذير أهل العلم.

﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بمعنى لنُذهبنّه، أي عنك.

والوكيل: من يوكل إليه المهم. والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك. وذكر هنا ﴿وكيلاً﴾ وفي الآية قبلها ﴿نصيراً﴾ لأن معنى هذه على فرض سلب نعمة الاصطفاء، فالمطالبة بإرجاع النعمة شفاعة ووكالة عنه، وأما الآية قبلها فهي في فرض إلحاق عقوبة به، فمدافعة تلك العقوبة أو الثأر بها نصر.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي لكن رحمة من ربك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك فهو باق غير مذهوب به.

وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر).

وموقع ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ موقع التعليل، أي لكن رحمةً من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك، لأن فضله كان عليك كبيراً فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك. وزيادة فعل (كان) لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل.

وعن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ : «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يُدرىٰ ما صيام، ولا صلاة، ولا نُسُك، ولا صدقة، وليُسرىٰ على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة، (لا إله إلا الله)، فنحن نقولها**»، فقال له صلة: ما تغني عنهم: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نُسُك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: «**يا صلة، تنجيهم من النار**» ثلاثاً (السلسلة الصحيحة).

(فاستمسك بالذي أوحي إليك)

– كثير من الناس يقرأ القرآن دون أن يتدبر المعاني... وكثير منهم تشكل عليه آيات من كتاب الله.. ولا يتعب نفسه في البحث عن معانيها.. أصبح همّ معظم المسلمين قراءة أكبر قدر من آيات الكتاب،وإتمام أكبر عدد من الختمات، بغض النظر عن فهم المعاني، مع أن الله عز وجل قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ (ص).. يذكر القرطبي في تفسير هذه الآية: «وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ».

– أظن أن السبب الرئيس لهذا الأمر ضعف عامة المسلمين في اللغة العربية.. وقلة الهمّة.. والغفلة عن أوليات العلم الشرعي... فيقدمون المستحب على الواجب والمباح على المستحب.. دون علم أو رجوع لأهل العلم... نسأل الله المغفرة لنا ولهم...

– قبل أسبوع تقريباً... وكنت في مجلس عام.. سألني أحدهم.. كيف يأمر الله عز وجل المؤمنين بالإيمان.. بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ (النساء).. أجبته.. هل حاولت فتح أي تفسير للاطلاع عليه.. لم يجبني.. قلت له هذا أمر من الله للمؤمنين بالثبات والاستمرار بالتصديق والإيمان.. ونصيحة مخلصة.. افتح كتب التفسير للاطلاع على ما يشكل عليك..

– أظنك أحرجته بردك هذا...

– لم يكن ردي بهذه الحدة،ولكن أغاظني عدم فهمه لآية من كتاب الله وعجزه عن فتح كتاب للتفسير لمعرفة معناها مع أن الأمر ميسر ولا يتعدى نقر أزرار الحاسوب أو لمس شاشة الهاتف الذكي...

كنت وصاحبي في طريقنا لسماع قراءة سنن الترمذي بالسند المتصل في أحد المساجد القريبة من منازلنا...

– مثل هذه الآية... قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ (الأحزاب).

– وماذا عن قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾ (الزخرف).

وكنا قد وصلنا إلى مجلس الذكر.. واتفقنا أن نقرأ تفسير هذه الآية بعد انتهاء المجلس وأداء الصلاة...

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾، يريد القرآن، وإن كذب به من كذّب، فـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾، يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه.

والاستمساك: شدة المَسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد. والأمر به مستعمل في طلب الدوام، لأن الأمر بفعل لمن هو متلبِّس به لا يكون لطلب الفعل، بل لمعنى آخر، وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أوحي إليه كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾، وهذا كما يُدعى للعزيز المكرّم، فيقال: أعزك الله وأكرمك، أي أدام ذلك، وقوله: أحياك الله، أي

أطال حياتك، ومنه قوله تعالى في الدعاء: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة).

والذي أوحي إليه هو القرآن وجملة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٣﴾ تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه وتعليل له.

و(**الصراط المستقيم**): هو العمل بالذي أوحي إليه، فكأنه قيل: إنه صراط مستقيم، ولكن عدل عن ذلك إلى ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٣﴾، ليفيد أن الرسول ﷺ راسخ في الاهتداء إلى مراد الله تعالى، كما يتمكّن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه، ولا خشية الضلال في بنيانه. ومثله قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩﴾ (النمل).

وحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ (البقرة)، وهذا تثبيت للرسول ﷺ وثناء عليه بأنه ما زاغ قيد أنملة عما بعثه الله به، كقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩﴾، ويتبعه المؤمنون على إيمانهم. وهذا أيضاً ثناء على القرآن. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٦﴾ (الأنعام).

- لنقرأ تفسير هذه الآية من سورة الأنعام:

ابتداؤه بالأمر باتباع ما أوحي إليه يتنزَّل منزلة المقدمة للأمر بالإعراض عن المشركين، وليس هو المقصد الأصلي من الغرض المسوق له الكلام، لأن اتباع الرسول ﷺ ما أوحي إليه أمر واقع بجميع معانيه، فالمقصود من الأمر

الدوام على اتباعه. والمعنى: أعرض عن المشركين اتباعاً لما أُنزل إليك من ربك. والمراد بما أوحي إليه: القرآن.

والاتباع في الأصل اقتفاء أثر الماشي، ثم استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ (التوبة: ١٠٠). ثم استعمل في امتثال الأمر والعمل بما يأمر به المتبوع فهو الائتمار، وإطلاق الاتّباع بمعنى الائتمار شائع في القرآن لأنه جاء بالأمر والنهي وأمر الناس باتباعه، واستعمل أيضاً في معنى الملازمة على سبيل المجاز، لأن من يتبع أحداً يلازمه. ومنه سُمِّي الرئيُّ من الجن في خرافات العرب (تابعة)، ومنه سُمِّي من لازم الصحابي وروى عنه (تابعياً). فيجوز أن يكون الاتباع في الآية مراداً به دوام الامتثال لما أمر به القرآن من الإعراض عن أذى المشركين وعنادهم، فالاتباع المأمور به اتباع في شيء مخصوص، وهذا مأمور به غير مرة، فالأمر بالفعل مستمر في الأمر بالدوام عليه.

ويجوز أن يكون أمراً بملازمة الدعوة إلى الله والإعلان بها ودعاء المشركين إلى التوحيد والإيمان، وأن لا يعتريه في ذلك لين ولا هوادة حتى لا يكون لبذاءتهم وتكذيبهم إياه تأثير على نفسه يوهن دعوتهم، والحرص على إيمانهم واعتقاد أن محاولة إيمانهم لا جدوى لها. فيكون الكلام شداً لساعد النبي ﷺ في مقامات دعوته إلى الله، وهذا هو المناسب لقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠). وليس المراد من الأمر بالاتباع، الأمر باتباع أوامر القرآن ونواهيه مطلقاً، لأنه لا مناسبة له بهذا السياق، وفي الإتيان بلفظ: (ربك) دون اسم الجلالة تأنيس للرسول ﷺ وتلطف معه.

وجملة: (لا إله إلا هو) معترضة، والمقصود منها إدماج التذكير بالوحدانية لزيادة تقررها وإغاظة المشركين.

والمراد (بالإعراض عن المشركين) الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم، فإن الله لم يأمر رسوله ﷺ بقطع الدعوة لأي صنف من الناس، وكل آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين، فإنما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم، ألا ترى كل آية من هذه الآيات قد تلتها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشرك كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ (النساء).

وهذا تلطف مع الرسول ﷺ وإزالة لما يلقاه من الكدر من استمرارهم على الشرك وقلة تأثير آيات القرآن ونذره في قلوبهم ، فذكّره الله بأن الله قادر على أن يحوّل قلوبهم فتقبل الإسلام بتكوين آخر ، ولكن الله أراد أن يحصل الإيمان ممن يؤمن بالأسباب المعتادة في الإرشاد والاهتداء؛ ليميز الله الخبيث من الطيب وتظهر مراتب النفوس في ميادين التلقي، فلما بعث الله إليهم النبي ﷺ كان إصغاؤهم إلى إرشاده متفاوتا على تفاوت صلابة عقولهم في الضلال وعراقتهم فيه، وعلى تفاوت إعداد نفوسهم للخير وجموحهم عنه ، ولم يجعل الله إيمان الناس حاصلاً بخوارق العادات ولا بتبديل خلق العقول، فهذا معنى انتفاء مشيئة الله في هذا المقام المراد به تطمين قلب الرسول عليه الصلاة والسلام وتذكيره بحقائق الأحوال وليس في مثل هذا عذر لهم ولا لأمثالهم من العصاة ، ولذلك رد الله عليهم الاعتذار بمثل هذا في قوله في الآية الآتية ﴿سَيَقُولُ

ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ (الأنعام) الآية . وفي قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ (الزخرف).

(فلا يكن في صدرك حرجٌ منه)

عاش النبي ﷺ أربعين سنة في قرية هي أم القرى، يعبد أهلُها الأصنام ويعظمونها، بل كانوا مرجع العرب في الحفاظ على مكانة الأصنام، وعادات الجاهلية، وهؤلاء كانوا قَرابة النبي ﷺ وأهله! فلما اختاره الله لرسالته، لك أن تتصور الهمّ الذي أصابه ﷺ أولاً في إخبار قومه، ثم في قبولهم لما جاء به، فنزلت بعض الآيات لتعالج هذا الجانب في دعوة النبي ﷺ لقومه أولاً، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، من هذه الآيات قوله -سبحانه وتعالى-:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (الأعراف).

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ (هود).

كنت وصاحبي في رحلة لمدة ثلاثة أيام لمزارع الشاي في مدينة (نورالليا) في سيريلانكا، المسافة بين المطار والمدينة لا تزيد عن ١٠٠ كلم، احتجنا خمس ساعات لقطعها لضيق الطريق وحدة الالتفافات صعوداً، قررنا أن نرتاح يوماً كاملاً قبل أن نذهب إلى مزارع الشاي!!!

بعد الإفطار أخذنا ركناً هادئاً في بهو الفندق، وكنا قد تواصلنا مع العالم عن طريق الشبكة العنكبوتية.

- ماذا ورد في تفسير هذه الآيات يا أبا عبدالله.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فيه مسألتان: الأولى: قوله -تعالى-: ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضيق، أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ، فقد ورد في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرّق قريشاً (كناية عن القتل)، فقلت: رب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك**» (مسلم).

فظاهره النهي، ومعناه نفي الحرج عنه، أي لا يضيق صدرك ألّا يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغ، وليس عليك من شيء من إيمانهم أو كفرهم، ومثله، قوله -تعالى-:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ (هود: ١٢).

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (الحجر).

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف).

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الشعراء).

قوله -تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ (النور: ٦١)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام: ١٢٥)، أي: شديد الضيق، إلى غير ذلك من الآيات، ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا (الشك)، وليس هذا شك الكفر إنما هو شك الضيق، وكذلك قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الحجر).

(كتابٌ) مبتدأ، ووقع الابتداء بالنكرة لأنها أُريد بها النوع بأنه كتاب من نوع الكتب المنزلة على الأنبياء، فكما نزلت صحف إبراهيم وكتاب موسى كذلك نزل هذا القرآن، أي هو كتاب عظيم تنويهاً بشأنه.

ويجوز أن يكون المقصود من الأخبار تذكير المنكرين والمكابرين؛ لأن النبي ﷺ والمؤمنين يعلمون أنه أنزل من عند الله؛ فلا يحتاجون إلى الإخبار به، فالخبر مستعمل في التعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرسول ﷺ بالإعراض، ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتذكير بالنعمة، أي هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصدر به؛ فإنه أنزل إليك لتنذر به الكافرين وتذكير المؤمنين، والمقصود: تسكين نفس النبي ﷺ، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة؛ فلا يكن في صدرك حرج إن كذبوا، وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها وذلك من مطالع السور العجيبة البيان.

وأصل ترتيب الكلام هنا: كتاب أنزل إليك لا ليكون في صدرك حرج، بل لينشرح صدرك به.

قاطعت صاحبي...

- كأنك تقرأ من كتاب واحد في التفسير؟

- نعم... ألم تحب ما سمعت...

- على العكس أنا مستمتع بما أسمع... أهو تفسير ابن عاشور؟؟

- نعم... التحرير والتنوير...

- تابع... بارك الله فيك...

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ (الأعراف)..

لم يبيّن هنا المفعول به لقوله ﴿لِتُنذِرَ﴾، ولكنه بيّنه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ (مريم)، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦﴾ (يس)، إلى غير ذلك من الآيات. كما أنه بيّن المفعول الثاني للإنذار في آيات أخر، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ (الكهف: ٢)، وقوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ (الليل)، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ (النبأ: ٤٠)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ (الأعراف)، فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ (مريم)، وقوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ (الذاريات)، وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ (ق).

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين. أنه

قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ (يس). لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصورٌ عليهم، لأن من لم ينتفع به فهو كالعدم.

ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾﴾ (المدثر)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان).

وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ (يس: ١١). لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم.

والثاني: إنذار خاص بالكفار لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين كقوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾﴾ (مريم)، وقوله هنا: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (الأعراف) اهـ.

والإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

- لم تذكر شيئاً عن الآية الأخرى من سورة هود...
- هذه سنناقشها بعد القيلولة... إن شاء الله

(قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)

- صدمني أحدهم بسؤاله عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨) .. كيف يخشى اللهُ من العلماء؟ كنت أعلم أن نسبة كبيرة من العرب، لا يعرفون ألف باء القواعد والنحو فضلاً عن فنون البلاغة وغيرها من أدوات لغتنا الجميلة.. بل لغة القرآن التي هي أكمل لغة يمكن التخاطب بها لأنه - القرآن - كلام الله عز وجل... فلا شك أنه أكمل كلام... لا نقص فيه على الإطلاق.. ولكن لم يخطر ببالي على الإطلاق أن يعجز أحدٌ عن التفريق بين الفاعل والمفعول به!!! وبين الضمة والفتحة؟!!

كنت وصاحبي في حوار هادف كعادتنا دائماً... ونحن في طريقنا لتفقد بيته الجديد... فقد كان يشتكي من صوت غير عادي في أحد أجهزة التكييف... أخبرَتْه الشركة المعنية... أنهم عملوا اللازم وتداركوا العطل..

- المشكلة أن كثيراً من الأجيال الجديدة... الذين هم الآن دون العشرين... يتقنون اللغة الإنجليزية.. أكثر من لغة القرآن ... والذين من بعدهم بالكاد يعرفون كيف يقرأون القرآن... وذلك أن التعليم الخاص أصبح أحد متطلبات الأجيال الجديدة...

- لو أن أحدهم بذل جهداً بسيطاً... لاستمتع بلغة القرآن... وتكون قراءته لكتاب الله... عبادة.. وسعادة..

- لدي استفسار عن قول الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.. أشعر أنني غير مرتاح لفهمي لهذه الآية..

- الحل بسيط... ما عليك إلا أن ترجع إلى كتب التفسير - وهي بفضل الله - على بعد ضغطة زر... وتصل إلى ما تشاء من أقول العلماء في هذه الآية... التي هي الآية (٨١) من سورة الزخرف... دعني أُخرج لك أقوال العلماء فيها...

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الزخرف).

عن الحسن قال: أربع في القرآن ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ (إبراهيم) ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وقوله: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء)، ما كنا فاعلين، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف)، ما كان للرحمن ولد، وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ﴾ (الأحقاف: ٢٦) ما مكناكم فيه.

عن مجاهد ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ المؤمنين بالله، فقولوا ما شئتم.

عن ابن عباس، قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

عن قتادة، قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، قال قتادة: وهذه كلمة من كلام العرب ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾: أي إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي.

وقيل: المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولدٌ فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فإنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي لا سبيل إلى اعتقاده.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ مع علم السامعين أن النبي ﷺ لا يروج عنده ذلك. ونظم الآية دقيق ومعضل، وتحته معان جمة: وأولها وأولاها: أنه لو يعلم أن لله أبناء لكان أول من يعبدهم، أي أحق منكم بأن أعبدهم.

ونُفي التعدد بنفي أخص أحوال التعدد وهو التعدد بالأبوة والبنوة، وهو أصل التعدد فينتفي أيضًا تعدد الآلهة الأجانب من باب أولى.

وكما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء).

ويدل لهذا ما رواه في (الكشاف) أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إنّ الملائكة بنات الله فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني، فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة.

فكون (إن كان) بمعنى ما كان - كثير من القرآن وفي كلام العرب، كقوله - تعالى -: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (يس)، أي ما كانت إلا صيحة واحدة.

الأمر الثاني: أن تنزيه الله عن الولد بالعبارات التي لا إيهام فيها - هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة في القرآن، في سورة (الكهف) ﴿وَيُنذِرَ

ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ (الكهف)، وفي سورة (مريم) في الكلام على قوله - تعالى - : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ (مريم)، والآيات الكثيرة التي تبين أن (إن) نافية.

فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يُبين أن المراد في محل النزاع - النفي الصريح. وخير ما يفسَّر به القرآن القرآن، فكون المعبَّر به في الآية ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف)، بصيغة النفي الصريح - مطابق لقوله - تعالى - في سورة (بني إسرائيل): ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الإسراء: ١١١)، وقوله تعالى في أول (الفرقان): ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان)، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الصافات)، إلى غير ذلك من الآيات.

ولما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ (الزخرف: ٨١)، نزَّه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه، مبيناً أن رب السماوات والأرض ورب العرش - جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

- اتضحت الصورة وظهر المعنى بفضل الله... جزاك الله خيراً.

(إنما أنا بشر مثلكم)

لا يطعن بالنبي ﷺ إلا يهودي حاقد، أو نصراني متعصب، أو ملحدٌ كافر... أما المنصفون حتى من غير ملة الإسلام فيعلمون أنه ذو رسالة سماوية خالدة وأنه بَلَغ الكمال البشري في خُلُقه، وإن كانوا يجهلون المكانة المميزة التي اختصه الله بها في الدنيا والآخرة.

معرض الكتاب في مسقط من المعارض التي أحب أن أحضرها؛ ليس الأهم والأكبر بين معارض الكتب ولكن حبّاً في عُمان؛ برها وبحرها وأهلها وطقسها وتضاريسها، بعد ندوة اليوم الثاني ذهبت وصاحبي العماني لتناول العشاء في أحد المطاعم التي تقدم الأكل الشعبي، رافقنا زميل أردني تعرفنا عليه في المعرض.

- لماذا الإصرار على تشبيه الرسول ﷺ بالبشر، لقد ميزه الله عن البشر بأنه لم يكن له ظل، وولد مختوناً، ولا يحتاج إلى طعام، ولم يكن يتغوط، بل الأرض تبتلع ما يخرج منه.

كان المتحدث صاحبنا الأردني، بدا أن لديه ميولاً صوفية، بل عرفنا فيما بعد أنه صوفي حتى النخاع.

- إنه ليس إصراراً على أن الرسول ﷺ بشر، بل هو ذكر ما قاله الله -عز وجل- عن رسوله ﷺ؛ ففي سورة الكهف، وكلنا يحفظ هذه السورة أو يقرأها كل جمعة يقول -تعالى- في ختامها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)، وفي سورة فصلت يقول -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ (فصلت)، وانتبه إلى قوله: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ولم يكتف بقوله (بشر)، فالنبي ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من أمور جِبلّية، كالبرد والحر والجوع والشبع والنوم والتعب والمرض وغير ذلك.

قاطعني:

- فما تقول في الحديث: «**لست كهيئتكم يطعمني ربي ويسقيني**».

ابتسمت قبل أن أبدأ حديثي لأُذهِب التوتر عن صاحبي.

- هذا الحديث في الصحيحين البخاري ومسلم وجاء في معرض النهي عن الوصال في الصوم، فقال له رجل: إنك تواصل يا رسول الله! قال ﷺ: «**وأيكم مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**» (متفق عليه)، فهذا الحديث خاص بالوصال في الصيام، أي أنه ﷺ كان يصوم ولا يفطر إذا غابت الشمس، وإنما يبقى دون أكل وشرب ليومين أو ثلاثة -أحيانا-، فقد ثبت في أحاديث أخرى أنه كان يأمر خادمه أن يقدم له الطعام مع غروب الشمس، وأنه كان يتسحر، ولكن في العشر الأواخر من رمضان، كان يشتد في العبادة ﷺ، وكان يواصل الصيام أحياناً. الشاهد أن النبي ﷺ بشرٌ من حيث الخلق، فقد ولد كما يولد البشر من أب وأم، وترعرع في صباه مع الصبية، وعمل في شبابه مع الشباب، ولكن الله حفظه من كل معصية وأكرمه بخصائص قبل بعثته وبعد بعثته، وبعد موته، وحين تقوم الساعة، وعند الحساب، وفي المحشر، وبعد أن يُقضىٰ بين الخلائق ويصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ويذبح الموت.

وإليكما بعض الآيات والأحاديث التي تبيّن جزءاً من ذلك.

- لقد فضل الله -عز وجل- نبيه محمد ﷺ على سائر الأنبياء والرسل الكرام. كما في قوله -تعالى-: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣) والذي عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله -تعالى-: ﴿بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣) هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة، وصاحب المعجزة الخالدة المتمثلة بالقرآن الكريم، وصاحب الرسالة الجامعة لمحاسن الرسالات السماوية السابقة.

كما أن الله -عز وجل- بعث كلَّ نبي لأمته خاصة وبعث نبينا ﷺ للناس كافة فقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ). أي إلى جميع الخلائق من المكلفين.

وما من نبي بعثه الله إلا وقد أخذ الله عليه العهد والميثاق أن يؤمن بمحمد ﷺ وينصره.

كما قال ربنا - جل وعلا -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**».

وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب).

وعن أنس، «أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان، فأتاه آت فأخذه فشق بطنه، فاستخرج منه عَلَقة فرمى بها، وقال: هذه نصيب الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم، ثم لأَمَه فأقبل الصبيان إلى ظِئره: قُتِل محمد، قُتِل محمد، فاستقبلت رسول الله ﷺ وقد انتقع لونه» قال أنس: «فلقد كنا نرى أثر المخيط في صدره».

وفي الرواية الأخرى:

عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به قال: «**بينما أنا في الحطيم -وربما قال في الحِجْر- إذ أتاني آت فشقّ ما بين هذه إلى هذه، (فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به؟ قال من ثغرة نحره إلى شعرته) فاستخرج قلبي ثم أُتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن، فغسل القلب بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم يقع خطوُهُ عند أقصى طرفه فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح ،فلما خلصت إذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل**

إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما، فسلمت فردّا، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلّم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلّم عليه فسلّمت عليه، فردّ ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي، حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل،

قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلّم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قِلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أنه رأى البيت المعمور ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه».

ويترجح أن الذي صح في هذه الحادثة أنها حصلت له ﷺ مرتين: الأولى: هو صغير عند ظئره في بني سعد كما في رواية أنس هنا. والثانية: في ليلة الإسراء والمعراج.

(وما أدري ما يفعل بي ولا بكم)

- آيات كثيرة من كتاب الله تبيّن صراحة أن الرسول ﷺ لا يملك ضرّ أحدٍ ولا نفعه.. بل لا يملك لنفسه من ذلك شيء إلا أن يشاء الله... وفي هذه الآيات عقيدةٌ أراد الله أن يثبتها في قلوب المؤمنين... وهي أن الله اختص بأمور فلا ينبغي أن تُصرف لغيره، فإذا كان الرسول ﷺ وهو أكرم الخلق وأكمل الخلق وأعلم الخلق وأتقى الخلق.. وأعظم الخلق مكانة عند الله... لا يملك ضراً ولا نفعاً لأحد... فمن باب أولى الجزم أن غيره لا يملك من ذلك شيئاً... لا شيخٌ ولا سيّد ولا إمامٌ ولا نبيٌّ ولا مَلَك ولا أحد على الإطلاق... فلا ينبغي أن تتعلق القلوب بأضرحة السادة والأئمة والمشايخ... تسألها جلب النفع ودرء الضر...

كنت في جلسة خاصة... مع أربعة مصلين أنا خامسهم... في الأسبوع الثاني من شهر (صفر).. وقد اجتمع أناس كثيرون في أحد المنازل قرب المسجد يحيون أربعينية الإمام الحسين رضي الله عنه وأرضاه...

- هل لنا أن نذكر بعض هذه الآيات؟!!

- مثلاً قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف). وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾ (يونس). وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ (الأحقاف).

استوقفني أبو مشعل:

- لنقرأ تفسير هذه الآية الأخيرة... من سورة الأحقاف...

- لك ذلك يا أبا مشعل.

- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي أول من أُرسل، قد كان قبلي رسل، عن ابن عباس وغيره. والبدع: الأول.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، يريد يوم القيامة. ولما نزلت فَرِح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا؟ لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يُفعل به، فنزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ (الفتح)، فنسخت هذه الآية، وأرغَمَ الله أنف الكفار.

وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، لقد بيَّن الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ (الفتح).

ونزلت ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الأحزاب). قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك.

والآية ليست منسوخة، لأنها خبر. قال النحاس: محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أول السورة إلى هذا الموضع خطاب للمشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم،

فوجب أن يكون هذا أيضاً خطاباً للمشركين كما كان قبله وما بعده، ومحال أن يقول النبي ﷺ للمشركين: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾، ولم يزل ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يُخبر أن من مات على الكفر مخلَّد في النار، ومن مات على الإيمان فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. ولا يجوز أن يقول لهم ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الآخرة، فيقولون كيف نتّبعك وأنت لا تدري أنصير إلى خير ودعة أم إلى عذاب وعقاب. والصحيح في الآية قول الحسن: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ في الدنيا، قال أبو جعفر: وهذا أصحُّ قول وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر. ومثله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف).

البِدْع من كل شيء المبدأ، أي: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل. فكما سمعتم بالرسل الأوّلين أخبروا عن رسالة الله إياهم، فكذلك أنا فلماذا يعجبون من دعوتي؟!

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تتميم لقوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فإن المشركين كانوا يسألون النبي ﷺ عن مغيّبات استهزاءً فيقول أحدهم إذا ضلّت ناقته: أين ناقتي؟ ويقول أحدهم: مَن أبي؟ أو نحو ذلك فأمر اللهُ الرسولَ ﷺ أن يعلمهم بأنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم، أي في الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف).

ولذلك كان قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ استئنافاً بيانياً وإتماماً لما في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ بأن قُصارى ما يدريه هو اتباع ما يعلمه الله به فهو تخصيص لعمومه، ومثل علمه بأنه رسولٌ من الله وأن المشركين في النار وأن وراء الموت بعثاً.

وفي الحديث عن أم العلاء، قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى فمرَّضناه حتى تُوفِّي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال: «**وما يدريك**»، قلت: لا أدري والله: قال: «**أمّا هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي ولا بكم**»، قالت أم العلاء: فوالله لا أُزكّي أحداً بعده، قالت: ورأيت لعثمان في النوم عيناً (نهراً) تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «**ذاك عمله يجري له**» البخاري، وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «**والله لا أدري والله لا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي وبكم**». (رواه البخاري).

(ولا تقولن لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً)

- عقيدة ينبغي أن تكون راسخة في قلب كل مسلم، أن (محمداً) ﷺ هو أكرم الخلق على الله وأنه أعلم الخلق بالله وأخشاهم لله، وأن لا منزلة لمخلوق عند الله أرفع من منزلته ﷺ .

- وهل هناك من يشك في هذه الثوابت؟

- نعم.. بعض من لا حظَّ له من علم ودين يحاول أن يطعن في مقام الرسول ﷺ ... وينشر كلامه من يتبع هواه ومن زيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم ويحسبون أنهم مهتدون!!

- لو تتبع المرء الأساليب التي خاطب بها اللهُ رسولَه ﷺ وقرأ كتب التفسير المعتمدة.. وأقوال علماء السلف ومن اتبع نهجهم لَوَجَد في هذه الأساليب من الإعذار والرقة والتربية ما يزيد مكانة النبي رفعة... ومنزلته علواً...

صاحبي.. طالب علم.. أنهى المرحلة الجامعية الأولى من الأزهر.. ويسعى الآن لنيل درجة الماجستير.. في موضوع يتعلق بالقرآن الكريم.. اقترحت عليه (أساليب خطاب الله لرسوله محمد ﷺ)، عنواناً لرسالته كنا نتحاور في هذا الموضوع.. بين العشاءين.. في ديوان المسجد..

مثلاً قول الله عز وجل..

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الكهف).

إن المشركين لما سألوا النبي صلى الله وآله وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين وعن الروح وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يقل «إن شاء الله»، فلم يأته جبريل - عليه السلام - بالجواب إلا بعد خمسة عشر يوماً. وقيل: بعد ثلاثة أيام فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتاباً رمزياً من الله لرسوله ﷺ كما عاتب سليمان - عليه السلام - فيما رواه البخاري: «أن سليمان قال: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة ولداً يقاتل في سبيل الله فلم تحمل منهنَّ إلا واحدة ولدت شق غلام».

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبي ﷺ من ثلاث جهات:

الأولى: أنه أجاب سؤاله، فبيّن لهم ما سألوه إياه.

الثانية: أنه علَّمه علماً عظيماً من أدب النبوءة.

الثالثة: أنه ما علَّمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤاله استئناساً لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه، كيْلا يتوهّم أن النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرَّم. ومثاله ما في الصحيح: أن حكيم بن حزام، قال: «سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خَضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لا أزرأ (أسأل) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا».

فعلم حكيم أن قول رسول الله ﷺ له ذلك ليس القصد منه منعه من

سؤاله وإنما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم: أن لا يأخذ من أحد غير رسول الله شيئاً، ولم يقل: لا أسألك بعد هذه المرة شيئاً.

و(غداً) مستعمل في المستقبل مجازاً. وليست كلمة (غداً) مراداً بها اليوم الذي يلي يومه، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي. وقد جمعها قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غَدٍ عَمِ

وفي تعريف الجلالة بلفظ (الرب) مضافاً إلى ضمير المخاطب دون اسم الجلالة العَلَم من كمال الملاطفة ما لا يخفى.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾، لما أبرّ الله وعْدَ نبيه ﷺ الذي وعده المشركين أن يُبيّن لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربه ويعزم على إمساك الوعد ببيان ما يُسأل منه بيانه دون أن يأذن الله به، أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنه يرجو أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة، وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم. والمعنى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: قل يا محمد عسى أن يوفِّقني ربي لشيء أقرب من هذا النبأ من

الآيات والدلائل الدالة على نبوّتي، قال الزجاج: عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوّة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل الله به ذلك، حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحُجة، وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف.

وهذا منتهى التلطف والتكريم والتنبيه على أمر ينبغي أن يكون الأمر عليه، ولو نبهه أولاً ثم أجاب على الاستفسارات لتوهم الإعراض عنه، ولربما لم يزل أثره بفرح الحصول على الإجابة، وفي ذلك إلحاق غمٍّ وكَمَدٍ بقلب رسول الله ﷺ . أما إذا جاء الجواب أولاً وتمت الفرحة والبشارة بالحصول على الجواب، وأثناء الابتهاج سيق التنبيه بأسلوب لطيف، لم يترك العتاب والتنبيه أثراً يُذكر.

(لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم)

- هذه الآية أتت في سورة الحجر وتمامها:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الحجر).. وفي سورة طه يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه).

في هاتين الآيتين إرشاد للأمة من خلال رسولها ﷺ إلى عدم الاغترار بما عند الكفار من زينة الدنيا واليقين بأن الله تعالى أعطى المؤمنين ما هو أعظم من ذلك في الدنيا والآخرة... الآية الأولى يسبقها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر: ٨٧). وآية طه يسبقها: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ (طه).

وإليكم ما جاء في تفسير هاتين الآيتين:

كنت مستمعاً في درس ألقاه شيخ زائر من الجامعة الإسلامية في إحدى دواوين منطقتنا... تحت عنوان: (الترتيب الإلهي للنعم).. أكمل الشيخ حديثه..

معنى الآية: لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزناً، فإنه لا بقاء لها. ﴿وَلَا

﴿تَمُدَّنَّ﴾ (طه: ١٣١)، أبلغ من (لا تنظرنّ)، والمد: أصله الزيادة. وأُطلق على بسط الجسم وتطويله. يقال: مدّ يده إلى كذا، ومدّ رجله في الأرض. ثم استعير للزيادة من شيء. ومنه مدد الجيش، ومد البحر، والمد في العمر. وتلك إطلاقات شائعة صارت حقيقة. واستعير المدّ هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيهاً له بمد اليد للمتناول، لأن المنهيَّ عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، أي فإن ما أوتيته أعظم من ذلك فلو كانوا بمحل العناية لاتبعوا ما آتيناك ولكنهم رضوا بالمتاع العاجل فليسوا ممن يُعجب بحالهم.

ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم، والصبر على أقوالهم، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا، إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزي. وروي عنه عليه السلام أنه مر بإبل بني المصطلق وقد عبست في أبوالها (وأبعارها) من السمَن فتقنَّع بثوبه ثم مضى، لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ (الحجر: ٨٨)، ثم سلاّه فقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه)، أي ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى، لأنه يبقى والدنيا تفنى. وقيل: يعني بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم.

ويروى أن عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه)، ثم ينادي بالصلاة: الصلاة يرحمكم الله.

والمقصود من هذا الخطاب ابتداءً هو النبي ﷺ ويشمل أهله والمؤمنين.

والآية في سورة الحجر: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الحجر).

فيه مسألتان: الأولى - قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، المعنى: قد أغنيتك بالقرآن عما في أيدي الناس.

يقال: إنه وافى سبع قوافل من البصرة وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها البُر والطيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر) أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تَمُدُّنّ أعينكم إليها. وإلى هذا صار ابن عيينة.

ومعنى ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، أي أمثالاً في النعم، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى، فهم أزواج. الثانية - هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوُّف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه.

وقيل: المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا، فلك في الآخرة أفضل منه. وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسه بَسَطَ جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفاً لتقريب الإنسان أتباعه. ويقال: فلان خافض

الجناح، أي وقور ساكن. والجناحان من ابن آدم جانباه، ومنه ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ (طه).

وإنما قال في هذه السورة ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ بغير واو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه، ثم لما نهاه عن الإلتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الإلتفات إليهم، فقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، حيث لم يؤمنوا وصَمَّمُوا على الكفر والعناد والنهي عن الحزن عليهم شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تُحزن الرسول ﷺ وتُؤسفه. فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف). ومنه حلول العذاب بهم مثل ما حل بهم يوم بدر فإنهم سادة أهل مكة، فلعل رسول الله ﷺ أن يتحسَّر على إصرارهم حتى حلَّ بهم ما حلّ من العذاب. ففي هذا النهي كناية عن قلة الاكتراث بهم وعن توعُّدهم بأن سيحلُّ بهم ما يثير الحزن لهم، وكناية عن رحمة الرسول ﷺ بالناس.

ولما كان هذا النهي يتضمّن شدة قلب وغلظة أتبعه بالرفق للمؤمنين بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وهو اعتراض مراد منه الاحتراس. وهذا كقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الفتح: ٢٩).

وورد في الحديث:

عن عقبة بن عامر قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم لا قطع رحم**»، فقلنا يا رسول الله: نحب ذلك، قال:

«**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقة أو ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل**» (رواه مسلم).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**» (رواه مسلم).

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)

من ثوابت العقيدة الإسلامية أن رسول الله ﷺ أكمل البشر، وأعلم الخلق بالله وأتقاهم له، وخير مَنْ عَبَدَ الله -عز وجل-؛ فأكرمه الله في الدنيا، ورفع ذكره، وشرح صدره، وجعل له مقاماً لم يجعله لغيره يوم القيامة، ومع ذلك كان يقول ﷺ: «**والله لا أدري - وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي ولا بكم**» (البخاري) في قصة وفاة عثمان بن مظعون، وكل خاطرة أو فكرة تخالف ذلك، يجب تأوليها بما يتفق وهذه العقيدة.

كان يومنا الثالث في مصر، وبالتحديد في منطقة (رشدي) بالإسكندرية، وعدني صاحبي أن نأكل وجبة بحرية لن أنساها أبداً، مرافقنا كان السائق (محمود)، الذي أكد مقولة صاحبي.

- ومظاهر تكريم الله لرسوله ﷺ في القرآن العظيم كثيرة، ذكرنا بعضها، ونكمل شيئا منها، يقول - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ (الأحزاب).

قوله -تعالى-: (شاهداً) قال سعيد عن قتادة: (شاهداً) على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، و(مبشراً) معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة، (ونذيراً) معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد، (وداعياً إلى الله) الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة، و(بإذنه) هنا معناه: بأمره إياك، وتقديره ذلك في وقته وأوانه، و(سراجاً

منيراً) هنا استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه. (سراجاً منيراً) قال: بالقرآن». وقال الزجاج: (وسراجاً) أي وذا سراج منير، أي كتاب نيّر.

أخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما من عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صِفَة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تعفو وتصفح» زاد أحمد «ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله؛ فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

ناداه بأوصافٍ أودعها -سبحانه- فيه للتنويه بشأنه، وزيادة رفعة مقداره وبيّن له أركان رسالته؛ فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمم السابقة.

وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير؛ فهذه الأوصاف تنطوي على مجامع الرسالة المحمدية؛ فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة.

- والشاهد: المخبر عن حُجةٍ المدّعي المحق؛ فالرسول ﷺ شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها، وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنة، قال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ (المائدة:٤٨)، وفي حديث الحشر: «**يُسأل كل رسول هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته**» (صحيح الجامع).

ومحمد ﷺ شاهد أيضاً على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته وشاهد عليهم في عرصات القيامة، قال -تعالى-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء)؛ فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدَّل.

فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول ﷺ بوصف كونه رسولاً لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتماً للشرائع، ومتمماً لمراد الله من بعثة الرسل.

والمبشّر: المخبر البشرى، والبشارة: هي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبي ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم.

وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

- **والنذير**: مشتق من الإنذار، وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبي ﷺ منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

﴿ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء)، خرج حتى صعد الصفا، فنادى: يا صبّاحاه (كلمة يُنادي بها من يطلب النجدة)، فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (البخاري).

وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمي التقوى، فإن المنهيَّات متضمنة مفاسد فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل.

و(الداعي إلى الله) هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله ويدعوهم إلى اتِّباع ما يأمرهم به الله.

وزيادة (بإذنه) ليفيد أن الله أرسله داعياً إليه ويسَّر له الدعاء إليه مع ثقل أمر هذا الدعاء وعِظَم خطره.

وقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ تشبيه بليغ، أي أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها، وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقَّاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف، فإن العلم يشبّه بالنور فناسبه السراج المنير. وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفاً ووصف السراج بـ (منيراً) مع أن الإنارة من لوازم السراج هو كوصف الشيء بالوصف المشتق من لفظه في قوله: شعرٌ شاعر، وليلٌ أليل لإفادة قوة

معنى الاسم في الموصوف به الخاص فإن هدى النبي ﷺ هو أوضح الهدى. وإرشاده أبلغ إرشاد.

وإليك نظائر صفته التي في التوراة من صفاته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ نظيرها هذه الآية، وحرزاً للأميين ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة)، أنت عبدي ورسولي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ (الكهف)، سميتك المتوكل ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾﴾ (الأحزاب)، ليس بفظ ولا غليظ ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ولا صخّاب في الأسواق: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان)، ولا يدفع السيئة بالسيئة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (فصلت: ٣٤)، ولكن يعفو ويصفح ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ (المائدة: ١٣)، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة)، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ (البقرة)، في ذكر الذين كفروا مقابلاً لذكر المؤمنين في قوله بقله ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ الآية.

(وما أرسلناك إلا كافة للناس)

مظاهر تكريم الله عز وجل لرسوله (محمد) ﷺ كثيرة متنوعة، فقد قرن طاعته بطاعته والاستجابة له بالاستجابة له... وحبه باتباعه.. وذكره بذكره.. وفضّله على جميع خلقه.. وتكفل بتربيته وأخلاقه... وأقر عينه.. وشرح صدره.. وغفر ذنبه.. وجعل له ما لم يجعل لأحد من الأنبياء والمرسلين ولا الملائكة المقربين.. ومن ذلك أن الله اختاره رسولاً لجميع البشر... وللجن أيضاً.. كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ).

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف).

- هل لك أن تمتعنا بما ورد في تفسير هذه الآيات ومثيلاتها..

صاحبي مطّلع جيد ومتابع نشيط للدورات والدروس والمحاضرات الشرعية.. يعرف من سيزور الكويت من العلماء المتميزين سواء في العقيدة أو الفقه أو القراءات أو غيرها... ويدعوني دائماً للذهاب معه إلى هذه المجالس المباركة... يقول: (تعال نؤمن ساعة)...

- استمِع لما ورد في تفسير هذه الآيات.

يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيراً لمن أطاعك، ونذيراً لمن كذبك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أن الله أرسلك إلى جميع البشر.

أشار ابن عباس إلى هذا فقال: إن الله فضّل محمداً على الأنبياء وعلى أهل السماء، فقالوا: بم يا ابن عباس فضَّله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأنبياء)، وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾﴾ (الفتح)، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ (إبراهيم)، وقال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ)، فأرسله إلى الجن والإنس.

عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحلّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونصرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة**» (مسلم).

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ (النساء) فيه البيان لعموم رسالته ﷺ إلى الجميع، كما يفيده التأكيد بالمصدر، والعموم في الناس، ومثله قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف).

وموقع الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾، رفع ما يتوهم من اغترار المغترين بكثرة عدد المنكرين رسالته بأن كثرتهم تغرُّ المتأمل لأنهم لا يعلمون.

ومفعول يعلمون محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي لا يعلمون ما بشَّرت به المؤمنين وما أنذرت به الكافرين، أي يحسبون البشارة والنذارة غير صادقَين.

وفي سورة آل عمران يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

وَرَدَ في التفسير:

قال سعيد بن جبير، وقتادة، وطاووس، والحسن، والسدي: أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدِّق بعضهم بعضاً بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك.

وهذا الميثاق أخذه الله على جميع الأنبياء، يؤذنهم فيه بأن رسولاً يجيء مصدقاً لما معهم، ويأمرهم بالإيمان به وبنصره، والمقصود من ذلك إعلام أممهم بذلك ليكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال، بدليل قوله:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (آل عمران)، إذ لا يجوز على الأنبياء التولي والفسق ولكن المقصود أممهم كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥).

وبدليل قوله قال: ﴿**فاشهدوا**﴾ أي على أممكم. وإلى هذا يرجع ما ورد في القرآن من دعوة إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة). وقد جاء في سفر التثنية قول موسى عليه السلام: «قال لي الرب أقيمُ لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به». وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولو كان المراد نبيئاً إسرائيلياً لقال أقيم لهم نبيئاً منهم.

والبشارات في كتب أنبياء بني إسرائيل وفي الأناجيل كثيرة ففي متّى قول المسيح: «وتقوم أنبياء كذبة كثيرون ويُضِلُّون كثيرين ولكن الذي يصبر - أي يبقى أخيراً - إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرر ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى».

والإقرار هنا مستعمل في معنى التحقيق بالوفاء مما أخذ من الميثاق.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب).

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أخذ من النبيين ميثاقهم، ثم

خصّ منهم بذلك خمسة: هم أولو العزم من الرسل، وهم محمد ﷺ ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. ولم يبيّن هنا الميثاق الذي أخذه عليهم، ولكنه جل وعلا بيّن ذلك في غير هذا الموضع: فبيّن الميثاق المأخوذ على جميع النبيين بقوله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

- لا شك أن جميع الرسل أخبروا عن محمد ﷺ .. وأَمَروا أن يؤمنوا به... وعلى الأخص من كان سيدركه من اليهود والنصارى.. ولذلك جاء النص صريحاً من عيسى عليه السلام حين قال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف).

- صدقت... ولا شك أن لا دين بعد دين الإسلام ولا نبي بعد محمد ﷺ ... لذا لزم الجميع أن يؤمنوا به.. فإنه جاء بما جاء به آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم سلام الله... فمن آمن برسوله ينبغي أن يؤمن بمحمد ﷺ لأن هذا هو أمر رسوله وهو الدين الذي جاء به رسوله ... ولذلك قال ﷺ : «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار**»... (السلسلة الصحيحة)، فلا ينبغي النظر إلى الأديان السماوية أنها سواء بعد بعثة النبي ﷺ ...

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

القرآن كلام الله... فيه كمال التعبير والبلاغة والفصاحة والإعجاز اللغوي بكل أنواعه... مع كمال المعنى.. لأنه كلام الله عز وجل.. بعض آياته يقف عندها فطاحلة اللغة العربية على مر الزمان... ليقولوا (والله لا يصدر هذا الكلام من مخلوق أبداً)..

كنا في مجلس خاص جمع رهطاً من أساتذة اللغة العربية... كنت وصاحبي الوحيدَين غير المتخصصَين.

- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ (القمر)، وغيرها الكثير من الآيات... التي تحمل الكثير من المعاني في كلمات قليلة.

ولكن دعونا نتدبر الآية الأولى من سورة الأنبياء ونربط اللغة بما ورد في كتب التفسير.

تبادلت وصاحبي النظرات إعجاباً وترقباً لما يدور من نقاش!!!

- صيغت هذه الآية بأبلغ نظم إذ اشتملت بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي

عُطفت به، ذكر فيه الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم، إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين، فهذه اثنا عشر معنى، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب.

والرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبي ﷺ بقوله: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة**» (صححه الألباني).

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلُّق نفسه الزكية بخُلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول: فقد زيّن الله محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخَلق ولهذا خصّ الله محمداً ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، في القرآن كله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة)، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران)، أي برحمة جَبَلَك عليها وفطرك بها فكنت لهم ليّناً.

وفي حديث مسلم: أن رسول الله ﷺ لما شُجّ وجهه يوم أُحد شَقّ ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «**إني لم أُبعث لعَّاناً وإنما بُعثت رحمة**».

والتعريف في «للعالمين» لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم، والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم، أي الإنسان، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدّم احتمال المعنيين في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ (الفاتحة). فإن أُريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية في الرحمة أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطاباً منه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف)، ففي قوله تعالى: ﴿وسعت كل شيء﴾، إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقال النبي ﷺ: «**إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**» (صححه الألباني).

وما يُتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة)، فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين، فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا، وإن أُريد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧) النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (البقرة)، وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس بالانتفاع بما ينتفع به من الحيوان، ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كُره صيد اللهو وحُرِّم تعذيب الحيوان لغير أكله.

ورغَّبت الشريعة في رحمة الحيوان ففي حديث «الموطأ»، عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إن الله غفر لرجل وجد كلباً يلهث من العطش فنزل في بئر فملأ خُفَّه ماء وأمسكه بفمه حتى رقي فسقى الكلب فغفر الله له**».

أما المؤذي والمضر من الحيوان فقد أُذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم.

استمر الحديث في المجلس لأكثر من ساعة... لم نشعر بها.. في طريق عودتنا.. سألني صاحبي...

– لم يذكر لنا المتحدث المصدر الذي اعتمد عليه في شرحه الممتع لآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾..

– أكاد أجزم أنه التحرير والتنوير.. تفسير ابن عاشور فهذا أسلوبه في التفسير...

بحث صاحبي في هاتفه... وبالفعل كان معظم الحديث من الكتاب الذي ذكرت...

ولاحظ أن المتحدث لم يذكر الآيات الأخرى التي وصف بها الله عز وجل المهام التي بعث لأجلها رسول الله ﷺ ... مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ (الأحزاب). وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ (آل عمران).

وذلك أن آية سورة الأنبياء اختصرت كل هذه الآيات وأتت بصيغة الحصر... النفي والاستثناء.. (ما) و(إلا)... فهي صيغة تنفي كل شيء وتثبت أمراً واحداً... (الرحمة)... وكل تفصيل لمهام النبي ﷺ تدخل في معنى (الرحمة)... وهذا تكريم من الله عز وجل لم يحصل إلا لنبينا ﷺ .

(لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)

- ما الفرق بين الخوف والخشية؟

- الخشية تكون مع التعظيم والعلم، والخوف شعور فطري جِبلّي من كل ما يمكن أن يؤذي أو يضر؛ ولذلك بيّن الله -سبحانه وتعالى- أن أحق من يخشاه هم العلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر)، والخوف يؤدي إلى الهروب والاجتناب، والخشية تؤدي إلى الخضوع والانقياد؛ فالعبد يخاف الله، ويخشى الله... وإن كانت بعض المواضع تجتمع فيها معاني هاتين الكلمتين.

- وهل المطلوب محبة الله أم خشية الله؟

- كلاهما، يجب على العبد أن يحقق المحبة كاملة لله، محبة تعظيم وعبودية ورغبة، ويخشى الله رهبة، وهذه لا تكون إلا لله، ومن تكريم الله -عز وجل- لرسوله ﷺ أن جعل اتِّباعه مقياساً لمحبة الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران).

في التفسير عن الحسن البصري: «أن قوماً زعموا محبة الله؛ فابتُلوا بهذه الآية»، وهناك آيات أخرى تبين وجوب اتباع النبي ﷺ، بل وطاعته في كل شيء؛ فكل أمر يصدر عنه يفيد الوجوب، ما لم يصرفه صارف، وإليك بعض الآيات في هذا الموضوع.

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المستشفى الصدري لنزور (أبا محمد)، بعد أن نُقل إلى الغرفة عقب انتهاء عملية قلب مفتوح قبل ثلاثة أيام.

قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وقال -تعالى-: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (النور).

وقال -سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ (الحجرات).

وقال -عز وجل-: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأحزاب)، وآيات كثيرة في المعنى ذاته.

وماذا عن شرح هذه الآيات من كتب التفسير؟

- بفضل الله أصبحنا نحمل مكتبتنا في جيوبنا.

أخرجت هاتفي وأخذت أبحث عن تفسير هذه الآيات، طال البحث قليلاً؛ فاقترح عليّ صاحبي تأجيل القراءة إلى ما بعد انتهاء زيارة صاحبنا، وكان ذلك في طريق عودتنا؛ كان الموضوع جاهزاً في ملف خاص.

- إليك ما جمعت لك من تفسير القرطبي، والشوكاني، وابن عاشور، قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا؛ فأنزل الله -عز وجل-: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران).

ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)؛ فأمر في هذه الآية باتباع ما سنّه رسول الله ﷺ؛ فكل حكم سنّه الرسول لأمته، قد ذكره الله -سبحانه- في كتابه العزيز بهذه الآية وبنحو قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

وفي الآية من سورة النور: قال سعيد بن جبير ومجاهد: المعنى قولوا يا رسول الله، في رفق ولين، ولا تقولوا يا محمد بتجهم، وقال قتادة: أمرهم أن يشرفوه ويفخّموه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ التسلل والانسلال: الخروج واللواذ من الملاوذة، وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك؛ فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة.

وقال الحسن: لواذاً فراراً من الجهاد، قوله -تعالى-: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾؛ بهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب، ووجْهُهَا أن الله -تبارك وتعالى- قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾؛ فتحرم مخالفته، بل يجب امتثال أمره، والفتنة هنا: القتل، قاله ابن عباس. وقال عطاء: الزلازل والأهوال، وقال جعفر بن محمد: سلطان جائر يسلط عليهم، وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول.

نُهوا عن أن يدعوا الرسول ﷺ عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضاً في اللفظ، أو في الهيئة؛ فأما في اللفظ؛ لا يقولوا: يا محمد، أو يا ابن عبدالله،

أو يا ابن عبدالمطلب، ولكن يا رسول الله، أو يا نبي الله، وأما في الهيئة؛ لا يدعوه من وراء الحجرات؛ لأن ذلك كله من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول ﷺ؛ فهذا أدب للمسلمين، وسد لأبواب الأذى عن المنافقين.

ولقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- يعرفون مكانة رسول الله ﷺ، ويجلونه ويعظمونه أكثر مما يعظم أتباع الملوك ملوكهم!

عن أنس قال: «رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل» (مسلم).

وعندما نزل النبي ﷺ على أبي أيوب، كان في الأسفل، وأبو أيوب في العلو؛ فانتبه أبو أيوب ذات ليلة؛ فقال: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ؟»؛ فتحول أبو أيوب وأهله إلى جانب الدور الثاني فباتوا في جانب، فلما أصبحا ذَكَرا ذلك للنبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: السفل أرفق بي الناس يأتون إلي، أستقبل الناس، السفل أرفق، أفضل؛ فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، لا أعلو سقيفة أنت تحتها؛ فتحول أبو أيوب في السفل، والنبي ﷺ في العلو؛ فكان يصنع طعام النبي ﷺ فيبعث إليه، فلما رد إليه، أي الطبق بعدما يأكل ﷺ، سأل عن مواضع أصابع النبي ﷺ؛ فيتبع أصابع النبي ﷺ؛ فيأكل من حيث أثر أصابعه» (رواه أحمد ومسلم).

و جاء عروة قبل أن يسلم إلى النبي ﷺ في الحديبية، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف ومعه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنصل السيف، لا

تصل يد هذا الرجل الذي كان مشركاً للحية النبي ﷺ، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ.

ثم إن عروة جعل يرمق النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا في كف رجل منهم؛ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، رأى عروة الصورة؛ فرجع إلى أصحابه المشركين؛ فقال: أي قومي، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلِكاً. (يعني: لم أرَ مَلِكاً) قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً ﷺ، إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له. (رواه البخاري).

(والذين يؤذون رسول الله)!!

تظهر بين فترة وأخرى دعوات عند اليهود والنصارى للانتقاص من رسول الله ﷺ والنيل منه والاستهزاء به، فيرد عامة المسلمين بالتظاهر تأييداً له ﷺ ودفاعاً عنه.

- مهما فعل البشر، فإنهم لن يستطيعوا أن ينقصوا من مكانة الرسول ﷺ؛ لأن الله أكرمه ورفعه وأعزه وأجله، ومن يكرم الله لا يهنه أحد: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾.

كنت وصاحبي في مكاتبنا الجديدة التي انتقلنا إليها في الموقع الجديد لجامعة الكويت، جلسنا نشرب قهوة الصباح في أحد المقاهي التي انتشرت في الساحات العامة للجامعة.

- آية تخطر على بالي، لم أستوعب معناها: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾**﴾ (الأحزاب)، كيف يستطيع أحد أن يؤذي الله؟

- هذه الآية من سورة الأحزاب ورقمها (٥٧).

بعد أن بحثت في هاتفي.. وكنت قد اطلعت على تفسير هذه الآية قبل أيام قليلة أثناء إعدادي لخاطرة في أحد تجمعات المنطقة.

أما أذى العبد لله فهو ليس كأذى العبد للعبد، وذلك أن الله لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث القدسي أحد معاني أذى العبد لله؛ ففي صحيح البخاري: «**كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك،**

وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا!»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله -تعالى-: «**يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر؛ فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما**»، فهذه بعض الأمثلة، على إيذاء العبد لله -عز وجل-.

- وماذا عن إيذاء النبي ﷺ؟

- لقد تكفل الله -عز وجل- بالدفاع عن نبيه ﷺ وتوعد من يؤذيه بالعذاب في الآخرة والخزي في الدنيا وورد إيذاء النبي ﷺ في سورة التوبة، يقول -تعالى-:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (التوبة).

ويقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

بيّن تعالى أن في المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة في أذية النبي ﷺ ويقول: إن عاتبني حلفت له بأني ما قلت هذا فيقبله، فإنه أذن سامعة.

وهذه الآية نزلت في عتاب ابن قشير، قال: إنما محمد أُذن يقبل كل ما قيل له. وقيل: هو نبتل بن الحارث، وقيل في المنافقين إجمالاً؛ فمنهم من قال: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير، وقال بعضهم: نقول فيه ما شئنا ثم نذهب إليه ونحلف له أنا ما قلنا فيقبل قَولَنا.

والأذى: الإضرار الخفيف، وأكثر ما يطلق على الضر بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران: ١١١).

وجملة (يؤمن بالله) تمهيد لقوله بعده (ويؤمن للمؤمنين) بأنه يؤمن بالله فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحداً إلا ببيّنة، فالناس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه لأنه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازعٌ له عن المؤاخذة بالظّنّة والتهمة.

و(الإيمان للمؤمنين) تصديقهم في ما يخبرونه، فتصديقه إياهم لأنهم صادقون لا يكذبون، لأن الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب، فكما أن الرسول ﷺ لا يؤاخذ أحداً بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين، فقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦١) ثناء عليه بذلك يتضمّن الأمر به، وعطف جملة (ورحمة) على جملتي (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) لأن كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفَّقه الله للإيمان منهم، ولو آخذهم

بحالهم دون مهل لكن مِنْ سبق السيف العذل، فالمراد من الإيمان في قوله: ﴿آمنوا﴾ الإيمان بالفعل، لا التظاهر بالإيمان، كما فسَّر به المفسرون، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون.

ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبي بوصف رسول الله إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

صرّح تعالى في هذه الآية بأن من يؤذي رسول الله ﷺ له العذاب الأليم. وذكر في «الأحزاب» أنه ملعون في الدنيا والآخرة، وأن له العذاب المهين، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب).

وأما أذية رسوله ﷺ فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً. أما في الأقوال: (ساحر. شاعر. كاهن. مجنون). وأما فعلهم: كسر رباعيته وشجُّ وجهه يوم أُحد، وبمكة إلقاء السلىٰ على ظهره وهو ساجد، إلى غير ذلك. وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حيي. وأُطلق إيذاء الله وسوله، وقُيِّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه... ومنه...

لما أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حُرمة النبي ﷺ وتكريمه،

وحذّرهم مما قد يخفى على بعضهم من خفي الأذى في جانبه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، وعلَّمهم كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ (الأحزاب: ٥٣)، ولا شك أن الكلام السيئ عن زوجاته أعظم من ذلك.. وأن الاعتداء على آل بيته أعظم من ذلك.. وأن سب صحابته أعظم من ذلك... وكله يدخل تحت وعيد الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾.

(إن الله وملائكته يصلّون على النبي)

أصبحت الرسالة القصيرة التي يبعثها أخي الدكتور عادل الشرف بعد صلاة عصر كل خميس عادة حميدة ننتظرها كل أسبوع... يذكِرنا فيها بمكارم الرسول ﷺ ومناقبه والصلاة عليه ﷺ ...

- ما معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

- هذه نعمة عظيمة من الله عز وجل على أمة محمد ﷺ ... وهذه الآية من سورة الأحزاب أتت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾، يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر: غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنىٰ والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾، المراد صلّوا لله بكرة وأصيلاً، والصلاة تُسمّى تسبيحاً. وخُصّ الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها، لاتصالها بأطراف الليل. وقال قتادة والطبري: الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر. والأصيل: العشي وجمعه أصائل. والأصل بمعنى الأصيل، وجمعه آصال، قاله المبرِّد.

فإذا فعلتم ذلك، صلّى عليكم هو وملائكته، قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من الضلالات إلى الهدى.

وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليلٌ على فضلها، على سائر الأمم. وقد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠). والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركاته لديه. وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (غافر: ٧).

- وماذا عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب)؟

- هذه الآية أتت بعد آيات ذكرت فيها أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ رضي الله عنهن جميعاً... ومن فضل الله علي أنه أصبح معظم ذكري (الصلاة على رسول الله ﷺ)... إيماناً بما قاله ﷺ «**إذن تكف همك ويغفر ذنبك**» (حسن صحيح)... ولكن دعنا نتدبر ما ورد في تفسير هذه الآية التي شرف الله بها نبيه ﷺ.

كنت وصاحبي في مكتبة المسجد بين العشاءين... وكثيراً ما نجلس في المسجد هذا الوقت... ننتظر الصلاة.. نتدارس كتاب الله.. نناقش قضايا في العقيدة.. والتفسير.. وعلم الحديث وغيرها من العلوم الشرعية..

- دعني أقرأ ما وجدته في تفسير القرطبي وابن عاشور...

هذه الآية شرَّف الله بها رسوله ﷺ في حياته وبعد موته، وذكر منزلته منه، لما حذَّر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول ﷺ أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلّوا عليه ويسلّموا تسليماً، وذلك هو إكرامهم الرسول ﷺ فيما بينهم وبين ربهم فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم. وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير (يصلون) ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك، مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته.

والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.

ومن أسباب الصلاة عليه أن يُصلِّي عليه من جرى ذكره عنده، وكذلك في افتتاح الكتب والرسائل، وعند الدعاء، وعند سماع الآذان، وعند انتهاء المؤذِّن، وعند دخول المسجد، وفي التشهد الأخير.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ (الأحزاب)، أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العُمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.

ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً**».

وقال سهل بن عبدالله: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولاّها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك.

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يردّ ما بينهما. وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء يُحجب دون السماء حتى يُصلِّي على النبي ﷺ ، فإذا جاءت الصلاة على النبي ﷺ رفع الدعاء.

وروى النسائي عن عبدالله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبِشر يُرى في وجهه، فقلت: إنا لنرى البشرى في وجهك! فقال: «**إنه أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لا يصلّي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً ولا يسلّم عليك أحد إلا صلّيت عليه عشراً**» (السلسلة الصحيحة).

وروى النسائي عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يُبلِّغوني من أُمتي السلام**» (صحيح الجامع).

عن الطفيل بن أُبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في ثلثي الليل فيقول: جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه، وقال أُبي يا رسول الله إني أصلي من الليل أفأجعل لك ثلث صلاتي؟

قال رسول الله ﷺ : «الشطر» قال: أفأجعل لك شطر صلاتي، قال رسول الله ﷺ : «الثلثان أكثر»، قال: أفأجعل لك صلاتي كلها قال: «إذن يغفر لك ذنبك كله» (حسن صحيح).

وفي رواية، أن رجلاً قال: يا رسول الله، أَجْعلُ ثلث صلاتي عليك؟، قال: «نعم إن شئت»، قال: الثلثين؟، قال: «نعم»، قال: فصلاتي كلها؟ قال رسول الله ﷺ : «**إذن يكفيك الله ما أهمَّك من أمر دنياك وآخرتك**».

(يا نساء النبي)

كثير من المجالس العائلية، يجتمع فيها من لا علم شرعي لديه، ومن انغمس في الدنيا فأصبحت همه الأكبر، ومن تبنى آراء دعاة «اليوتيوب»، ومن يحب أن يستمع إلى النقاشات والآراء المختلفة، ومن يعتمد على قراءاته وثقافته الشخصية.

ذات مرة كنا في مجلس فيه أحد المتصيدين، سألني:

- ما رأيك في قول الله -تعالى-:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ (الأحزاب).

انتبه الحضور، صمتوا يترقبون نقاشاً حاداً، ورداً قوياً، فحدثت نفسي أن يكون الرد هادئاً علمياً، مع يقيني أن السائل لا يبحث عن إجابة، ولكن لأجل الآخرين في المجلس.

- هذه الآية من أي سورة في القرآن؟! وكم رقمها؟

سكت السائل لأنه لم يكن يعرف الإجابة أجبت عن سؤالي.

- هذه الآية هي الآية الثلاثون من سورة الأحزاب، وحتى نعرف معناها يجب أن نقرأ ما قبلها وما بعدها، استمع إلى الآيات كاملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ

ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ۞.

بدأت الآيات بأمر الله -عز وجل- لرسوله أن يخيّر زوجاته بين الحياة الدنيا وزينتها، وبين ما عند الله، وفي التفسير:

لما نزلت هذه الآية ابتدأ النبي ﷺ بعائشة؛ فقال لها: «**إني ذاكرٌ لك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك**»، ثم تلا هذه الآية.

فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك؛ فقلن مثل ما قالت عائشة».

تولى الله خطابهن بعد أن أمر رسوله بتخييرهن؛ فخيرهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ فخاطبهن ربهن خطاباً لأنهن أصبحن على عهد مع الله -تعالى- أن يؤتيهن (أجراً عظيماً)، ولما كان الأجر الموعود منوطاً بالإحسان أُريدَ تحذيرهن من المعاصي؛ إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهن عذاباً مضاعفاً، ونداؤهن للاهتمام بما سيلقى

إليهن، وناداهن بوصف نساء النبي؛ ليعلمن أن ما سيلقى إليهن خبر يناسب علو أقدراهن.

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، واللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن (وتخصيصهنَّ) دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر)، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنعام)، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف)، ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ (الزمر)، فلما كانت منزلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن الرفيع، ولهذا قال: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

فالمعنى: أنتنَّ أفضل النساء، وظاهره تفضيل لجملتهن على نساء هذه الأمة، وسبب ذلك أنهن اتصلن بالنبي ﷺ اتصالاً أقرب من كل اتصال والتقييد بقوله: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ ليس لقصد الاحتراز عن ضد ذلك، وإنما هو إلهاب وتحريض على الازدياد من التقوى، وفعل الشرط مستعمل في الدلالة على الدوام، أي إن دمتنَّ على التقوى، فإن نساء النبي ﷺ مُتَّقيات من قبل، وجواب الشرط دل عليه ما قبله.

فُرِّع على تفضيلهنَّ وترفيع قدرهن إرشادهن إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنها ذرائع خفية نادرة تُفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن في نفوس بعض ممن اشتلمت عليه الأمة، وفيها منافقوها.

وهذه الآية تقتضي وجوب مكث أزواج النبي ﷺ في بيوتهن وأن لا يخرجن إلا لضرورة، وقد خرجت عائشة إلى بيت أبيها أبي بكر في مرضه الذي مات فيه. وكُنَّ يخرجن للحج وفي بعض الغزوات مع رسول الله ﷺ ولذلك لما مات سعد بن أبي وقاص أمرت عائشة أن يُمر عليها بجنازته في المسجد لتدعو له، أي لتُصلِّي عليه. (الموطأ).

وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في الفتنة التي تُدعى: وقعة الجمل، فلم ينكر عليها ذلك كثير من جلّة الصحابة منهم طلحة والزبير. وأنكر ذلك عليها بعضهم مثل: عمار بن ياسر، وعلي بن أبي طالب، ولكلٍّ نظرٌ في الاجتهاد. والذي عليه المحققون مثل أبي بكر بن العربي أن ذلك كان منها عن اجتهاد، فإنها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين لتسعى بين فريقي الفتنة بالصلح فإن الناس تعلّقوا بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة ورجوا بركتها أن تخرج فتصلح بين الفريقين، وأخذت بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ (الحجرات: ٩)، ورأت أن الأمر بالإصلاح يشملها وأمثالها ممن يرجون سماع الكلمة، فكان ذلك منها عن اجتهاد. وقد أشار عليها جمع من الصحابة بذلك وخرجوا معها مثل طلحة والزبير ناهيك بهما. وهذا من مواقع اجتهاد الصحابة التي يجب علينا حملها على أحسن المخارج ونظن بها أحسن المذاهب.

– هذا باختصار ما ورد في كتب التفسير عن هذه الآيات، وقد تبيّن أن فيها مناقب لأمهاتنا أزواج النبي ﷺ وليس فيها من المثالب شيء... وربما أركز على الآية (٣٣).. وفيها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب)... هذه العبارة ليست آية كاملة، وإنما جزء من آية... وهذه الآية جزء من آيات كلها في حق نساء النبي ﷺ .

ولا يتعارض ذلك ما ورد في الأحاديث الصحيحة، كما تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.. «خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مُرط مرَحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب)» رواه مسلم.

فالآيات في زوجات النبي، والأحاديث في علي وفاطمة والحسن والحسين... رضي الله عن الجميع.

تم بحمد الله

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
يأيها النبي اتَّقِ الله	١١
يأيها النبي لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك؟!	١٦
يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك!	٢٠
وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه	٢٦
فلا تَدعُ مع الله إلهاً آخرَ فتكون من المعذّبين	٣١
... فتطردهم فتكون من الظالمين	٣٥
فلا تكن من الممترين	٤١
ولا تكونن من المشركين	٤٥
ولا تكن من الغافلين	٤٩
لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً	٥٣
ولئن اتبعت أهواءهم	٥٨
فاستقم كما أمرت	٦٣
ولا تكن للخائنين خصيماً	٦٨
وإما ينزغنك من الشيطان نزغ	٧٢
فأما اليتيم فلا تقهر!	٧٦

ما كان لنبي أن يكون له أسرى	٨٢
عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم!	٨٧
عبسى وتولى	٩٠
واستغفر لذنبك	٩٤
ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر	٩٩
ليس لك من الأمر شيء	١٠٥
إنك لا تهدي من أحببت	١٠٩
فاعبد الله مخلصاً له الدين	١١٣
عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً	١١٨
ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك	١٢٢
فاستمسك بالذي أوحي إليك	١٢٦
فلا يكن في صدرك حرج منه	١٣٢
قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين	١٣٧
إنما أنا بشر مثلكم	١٤١
وما أدري ما يفعل بي ولا بكم	١٤٧
ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً	١٥١
لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم	١٥٥
إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً	١٦٠

وما أرسلناك إلا كافة للناس	١٦٥
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١٧٠
لا تقدموا بين يدي الله ورسوله	١٧٥
والذين يؤذون رسول الله!!	١٨٠
إن الله وملائكته يصلون على النبي	١٨٥
يا نساء النبي	١٩٠
الفهرس	١٩٥

لله الحمد